الفصل الثالث

العمارة الإسلامية في العصر الأموي

أولاً..نشأة العمارة الإسلامية والأسس التي قامت عليها:

شهد القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي على يد خلفاء بني أمية/٤١ - ١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م/ نشاطاً عمرانياً ونتاجاً معمارياً جديداً تتجلى فيه الأصالة والإبداع. وقد عبر هذا النشاط عن رغبة قادة الدولة العربية الإسلامية وحماسهم للتشييد وخلق فن جديد تتميز به الحضارة الإسلامية والعصر الجديد الذي تعيشه شعوب المنطقة. كما عبر عن روح العصر الذي طبعه الدين الإسلامي بطابعه، وانصهرت في بوتقته شعوب وثقافات وتقاليد عديدة ومتنوعة عربية وأعجمية.[٤٠]

لقد تمثلت في هذا النشاط إرادة حقيقية في التجديد والابتكار وقدرة على تطوير العناصر القديمة المقتبسة وتحويرها وصياغتها من جديد واستخدامها بأسلوب مختلف يتفق مع الذوق الجديد الذي كونه هذا الدين في نفوس المسلمين مع الثقافة الإسلامية الجديدة. كما تمثلت في التوفيق بين العناصر المستوحاة من مختلف الأماكن لتكوين عمل فني جديد يميزه من يراه عن كل ما سبقه من أعمال فنية.[٤١]

ويتميز مثل هذا العمل بالأصالة التي لا تتعارض مع الاستفادة من الفنون الشائعة حينذاك كالبيزنطية والساسانية، فقد أخذ المسلمون الأوائل وخاصة في العصر الأموي عن هذه الفنون وتأثروا بها، شأنهم في ذلك شأن أصحاب سائر الحضارات في الأخذ والعطاء والاستفادة من مظاهر الحضارات السابقة.

ورغم التشابه في الملامح العامة أو العناصر المعمارية بين المنشآت الإسلامية من جهة، وبين تلك التي كانت قائمة من قبل من جهة أخرى، فإننا حينما نتأمل أياً من المنشآت الأموية نشعر بأننا أمام فن معماري جديد مختلف، ليس من صنع الرومان أو الفرس أو البيزنطيين. يتمثل في أسلوب استخدام العناصر المعمارية والزخرفية المقتبسة، وفي طريقة التعبير عن المواضيع. إنه إذن الفن الجديد الذي أخذت تتكون شخصيته في هذا العصر المبكر، العصر الأموي لينتمي إلى الحضارة الإسلامية.[٤٢]

الشكل(١)

ويمكن تحليل شخصية هذا الفن من إمعان النظر بالمنشآت الأموية وتأمل صفاتها وخصائصها، ومحاولة اكتشاف العوامل التي ساعدت على تكوين هذه الشخصية وإعطائها من ثم خصائصها ومميزاتها. ويمكن إرجاعها إلى عوامل ثلاثة رئيسة هي:

١٠- بوشه، (غازي)، الأمويون العاصمة الأولى لدمشق، في اكتشف الفن الإسلامي في حوض المتوسط، كتاب صادر عن دمشق بلا حدود، دار الفكر، دمشق،/٢٠٠٧/، ص/٣/.

١١- زكي، (عبد الرحمن)، الفن الإسلامي، سلسلة كتابك، الكتاب رقم/١٦٤/، دار المعارف، القاهرة، ط٤،/١٩٨٥/، ص/١١-١٥/.

١٢- محمد، (سعاد ماهر)، العمارة الإسلامية على مر العصور، دار البيان العربي، القاهرة،/١٩٨٩/، ص/٢١٣-٢١٩/.

- **العامل الروحي:**

❋ يتمثل فيما أدخله الدين الإسلامي من تعاليم وأفكار وثقافة على حياة الناس، وما أحدثه من تربية وتهذيب للنفس البشرية انعكست على ما شيده الأمويون من منشأت.

❋ بالذوق العام الناتج عن روح العصر، التي رسم معالمها التفاعل بين الثقافات في بلاد الشام وغيرها، وعاشها الحاكم والمهندس والفنان والصانع، أولئك الذين يقفون وراء كل عمل فني.

- **العامل العملي:**

❋ يتمثل في مواد البناء المألوف استعمالها في بلاد الشام التي شيدت منها المنشآت الإسلامية. لأن مواد البناء لها دور في تحديد مميزات الفن المعماري واتجاهاته. ومن بين هذه المواد الحجارة والآجر واللبن والخشب، إضافة إلى الرخام والفسيفساء التي ربما كان مصدرها خارج الدولة الإسلامية.

❋ اقتباس، مادة صالحة للتطوير والتعديل، للتكيف مع الأذواق والرغبات التي أتى بها العصر الجديد.

❋ الأيدي العاملة المنفذة وما تملكه من خبرات فنية، وما ورثته من تقاليد، وهي على الغالب أيد محلية أساسها أهل بلاد الشام الذين أتقنوا صناعة البناء وفنونه، وربما يكون إلى جانبهم قلة جاءت من مصر تحمل معها التقاليد القبطية أو جاءت من العراق تحمل معها التقاليد الساسانية[٤٣].

- **عامل الحاجة إلى الخلق والإبداع:**

❋ يتمثل في العبادة والشعائر الإسلامية، فالصلاة الجماعية مثلاً ونظامها عملت على قيام المساجد على نمط محدد، ومن ثم أدى إلى وجود أسس ثابتة في تصميم المساجد.

❋ كما يتمثل في تطوير المساكن والقصور وفي الحاجة إلى تشييد مدن إسلامية جديدة، فحاجة الخلفاء إلى منازل تقام في البادية، تحقق لهم الاستجمام والتحرر من جو المدينة الصارم أدت إلى ظهور قصور البادية الحافلة بمظاهر النعيم والترف كالحمامات والحدائق وقاعات السمر.

ولتلبية هذه الحاجات كلها لجأ المهندس والفنان إلى الاقتباس والاصطفاء من الفنون السابقة وتطوير عناصرها، والمزج بين ما يختاره منها، وتحقيق الانسجام والتوافق فيما بينها. إلا أنه استبعد مواضيع لا تتناسب وروح العصر واستعاض عنها بمواضيع أكثر ملائمة. ولا بد أن يؤدي كل ذلك إلى الابتكار وخلق الفن الجديد.[٤٤]

ثانياً.. تجديد المساجد، وبناء المساجد والقصور:

اهتم الأمويون بتجديد المساجد التي اسست ايام الرسول (ص) والخلفاء اراشدين، لأن المسجد في ذاك العصر لم يعد مركز عبادة فقطوإنما صار مركزاً للاجتماع واتخاذ القرارات التي تهم المجتمع الإسلامي كما كان على كل أمير أن يقصد الجامع حين يوليه الخليفة ويعلن سياسته الجديدة من على

---

[٤٣] - شامي، تطور تاريخ العرب، ص٢٤٠.

٤٤- الريحاوي، (عبد القادر)، العمارة في الحضارة الإسلامية، مطابع جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٩٠/، ص/٢٤-٢٥/.

منبرها وبعد قيامه بهذا الواجب التقليدي يصبح أميراً لهذا العصر وكانت كتب الخليفة وأوامره تقرأ على الناس في المساجد.

كما مال كثير من الحكام بعد الفتوح التي حرر بها العرب المسلمون بلاد الشام والعراق، وشمالي أفريقية على حياة الترف والنعيم، وتقليد غيرهم باتخاذ القصور المنيفة، واقتناء الجواري والأثاث الفاخر، ولقد ظهر في الحجاز في عصر الخلفاء الراشدين قصور شيدت من طبقتين أو ثلاث[٤٥].

وفي العصر الأموي استعمل الخلفاء والأمراء بعض القصور الرومانية التي كانت في دمشق وغيرها، كما بنوا قصوراً جديدة اندثرت جميعها، وذلك أن بناءها كان غالبا من الطين أو التراب المشوي، فلم تستطع أن تقاوم عوامل الطبيعة وبيئة دمشق الرطبة.

أضف إلى ذلك أن القصور عكس المساجد تهدمت لأنها تخص أشخاصاً تذهب بذهابهم. ويحل بها ما يحل بأصحابها من النقمة، بينما تبقى المساجد لأنها تخص الناس جميعاً، والقصور في المدن أدعى للزوال و الاندثار من قصور البادية نظراً لحادة الناس في المدن إلى الأرض حيث يقومون بإعمارها وتجديد مبانيها من حين لآخر.

فقد ذكروا أن معاوية اتخذ قصر الخضراء مقراً للخلافة الأموية بدمشق، وكان موقعه إلى جوار الجامع الأموي عند جداره الجنوبي، وسمي بعدها دار الإمارة لأن الخلفاء الأمويين توارثوه من بعده، ويذكر ابن عساكر (أن الخضراء التي فيها قصر معاوية هو من بناء أهل الجاهلية، من بناء قد بنوه)[٤٦]، ولعل معاوية رممه وأضاف إليه ثم سكنه منذ ولايته على الشام، والتهت النار هذا القصر أواخر عصر الفاطميين[٤٧]، وبادت الخضراء وصارت كوماً من تراب بعدما كانت في غاية الإحكام والإتقان، وطيب الغناء، ونزهة المجلس، وحسن المنظر، وبقيت المنطقة التي كان فيها القصر تحمل اسم الخضراء، وأقيم على جزء منها عام ١٧٤٩م قصر العظم الذي مازال حتى الآن مستعملاً متحفاً للتقاليد الشعبية.[٤٨]

وكذلك فإن دور الإمارة التي شيدها الولاة في البصرة والكوفة اندثرت ولم يبقى لها أثر.

وبالرغم من عدم وجود قصور للأمويين في المدن ولا حتى في العاصمة دمشق، فإنه يمكن القول اعتماداً على ما تورده الكتب والروايات التاريخية بالإضافة إلى ما توصل إليه علماء الآثار، أن القصور الأموية انتشرت في بلاد الشام انتشاراً واسعاً، ولم تكن مقتصرة على منطقة بعينها بل وجدت ممتدة من جنوب الأردن إلى الجزيرة الفراتية شمالاً ومن جوف الصحراء شرقاً حتى ساحل البحر المتوسط غرباً، إذ وجد للخلفاء والأمراء قصوراً في المنطقة الشمالية، والشمالية الشرقية لخليج العقبة.

والجدير بالذكر أنه شيد الأمويون قصوراً في البادية انسجاماً مع الهواية المفضلة لدى الأمويين وهي الصيد، أضف لذلك مراقبة تحركات البدو عن كثب ونشر الأمن والاستقرار في البادية.

---

[٤٥] - الرفاعي، الإسلام في حضارته، ص٤٠٩.
[٤٦] - ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٣٨/٢.
[٤٧] - ابن كثير، البداية و النهاية، ٩٢/٢-٩٧.
[٤٨] - أبو خليل، الحضارة، ص٥٦٨.

تغيره الفرنج). وكل ما أشار إليه من أعمال الصليبيين هو تشييد القسوس شمالي قبة الصخرة ووضع بعض الصور حول الصخرة.

أما الذين حدثونا عن أحوال الأقصى بعد تحريره عام/٥٨٣هـ/١١٨٧م/، أمثال الأصفهاني كاتب صلاح الدين، لم يصفوا لنا كيف كان الأقصى وقتئذ، ولم يذكرو عدد بلاطاته، وإنما أشارو إلى ما أحدثه الصليبيون من تغيير في معالم الأقصى وقبة الصخرة، وإلى قيام السلطان صلاح الدين بإزالة آثارهم، وهدم دار وكنيسة أقاموها غربي الأقصى. وتدل هذه الإشارة العابرة على أن الأقصى لم يكن يتصل من هذه الجهة بالسور، وإنما كانت هناك فسحة أقام عليها الفرنج كنيسة وداراً. ولعل هذه الفسحة نتجت بعد انهدام الجانب الغربي من الأقصى في العصر العباسي.

وكان العمل المهم الذي تم في عهد السلطان صلاح الدين إنشاء محراب من الرخام. وهو المحراب الكبير الذي ما زال موجوداً، يحمل تاريخ إنشائه عام/٥٨٣هـ/١١٧٣م/. وكذلك المنبر الخشبي المشهور الذي تم صنعه أيام السلطان نور الدين محمود بن زنكي في حلب وأمر صلاح الدين بجلبه إلى القدس ويعد من أحسن منابر الإسلام، وقد تناوله الحريق مؤخراً حين أشعل الصهاينة اليهود النار في المسجد في أب من عام/١٩٧٩م/ وجدد كذلك في العصر الأيوبي الرواق الذي يتقدم الواجهة الشمالية للمسجد وعلى الأرجح أيام السلطان عيسى بن الملك العادل أبي بكر في عام/٦١٦هـ/١٢١٩م/.[٧٦] الشكل(٨،٩)

٤- المسجد الأموي الكبير في دمشق:

◆ تاريخ الجامع:

تمّ فتح دمشق وتحريرها من الحكم البيزنطي عام /١٤هـ/٦٣٥م/، ووقع اختيار المسلمين على الأرض المخصصة للعبادة منذ آلاف السنين؛ ليقيموا عليها عبادتهم، فقد أُقيم عليها في العصر الآرامي معبد (حدد)، ثم معبد (جوبيتر) في العصر الروماني، وكان هذا الأخير مزوّداً بسور خارجي بلغت أبعاده (٣٨٠×٣٠٠م)، ما تزال أجزاء منه باقية بين أسواق دمشق وأحيائها المحيطة بالمسجد.

أما السور الداخلي فقد غدا سوراً لجامع (بني أمية)، وكان المعبد الذي تحول إلى كنيسة للمسيحيين على اسم النبي (يحيى عليه السلام) (يوحنا المعمدان) مؤلفاً من باحة سماوية يتوسطها هيكل الإلهة (سيلا)، وتحيط بأسواره من الداخل أروقة على شاكلة معابد الرومان المشيدة في المشرق، كمعبد الإله (بل) في تدمر.

وقد اقتسم المسلمون عند الفتح هذا المعبد الكبير مع المسيحيين، وأخذوا نصفه الشرقي؛ ليُقيموا عليه مسجد الصحابة، وتركوا للمسيحيين القسم الغربي الذي كان يحوي الكنيسة التي أُقيمت داخل المعبد في أيام الإمبراطور (تيودوسيوس) في أواخر القرن الرابع الميلادي، كما رُجّح بعد دراسة النصوص

٧٦- أبو شامة، (شهاب الدين المقدسي ت٦٦٥هـ/١٢٤٨م)، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق عزة العطار، مطبعة وادي النيل، القاهرة،١٩٤٧، ص١٠٧.

التاريخية واستقرائها، وصار من الأخطاء الشائعة اعتقادُ أن المسلمين اقتسموا الكنيسة ذاتها مع المسيحيين ، مما يستتبع ممارسة الطرفين العبادة تحت سقف واحد، وهذا لا يقبله الواقع، وقد تبين أن مبعث هذا الاعتقاد الخاطئ أن الرواة والمؤرخين الذين أشاروا إلى هذا الموضوع لم يميزوا بين (معبد) و(كنيسة)، فقالوا باقتسام الكنيسة، وهم يقصدون اقتسام المعبد، وفعلاً أخذ المسلمون النصف الشرقي للمعبد، وأقاموا عليه مسجدهم، وتركوا الكنيسة القائمة في القسم الغربي للمسيحيين، يؤيد هذا (المهلبي)؛ إذ قال: (وبنى المسلمون الجامع إلى جانب كنيسة يوحنا)[٧٧]، واستمرت الحال على هذا الأمر قرابة /٧٠/ عاماً، إلى أن تمكن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك من تشييد مسجده الجامع.

وتُشير الروايات التاريخية إلى قيام الخليفة الوليد بهدم كل ما كان من منشآت سابقة، والاحتفاظ بسور المعبد؛ ليشيد داخله جامعه وفق تصميم جديد مبتكر يتجاوب مع شعائر الدين الإسلامي وأغراض الحياة العامة، ويليق بعظمة الدولة الإسلامية وأهمية العاصمة دمشق، واستغرق تشييد الجامع وزخرفته خلافة الوليد كلها، وظهر جامع (بني أمية) بعد /١٠/ سنوات ثورة على البساطة والتقشف، وانطلاقة جديدة في الفن والعمارة، ووُضعت بتشييده مبادئ هندسة الجوامع الكبرى التي شُيّدت في العالم الإسلامي، وقد عبر الوليد عن هذه الأصالة بقول له تناقله الرواة، هو: (إني أريد أن أبني مسجداً لم يَبْنِ مَنْ مضى قبلي، ولا يكون بعدي، مثلَهُ)[٧٨].

كان الوليد بن عبد الملك من أعظم الخلفاء الأمويين أثراً في العمارة والفنون العربية، ويكفي هذا الخليفةَ فخراً أنه باني المسجد الأموي الكبير في دمشق الذي يُعد من أبدع العمائر الأموية، بل من أهم الآثار الإسلامية والعربية التي ما تزال باقية في دمشق، وقد شيّده بين عامي /٨٨-٩٦هـ/٧٠٧/-٧١٤م/، واستقدم له الصناع والعمال من مختلف البلاد الإسلامية، بل رُوي أنه كتب إلى ملك الروم يطلب إليه أن يرسل إليه (٢٠٠) صانع من بلاده، وأن ملك الروم أجابه إلى ما طلب[٧٩]، وما زال جامع دمشق حتى اليوم قائماً ومحتفظاً بمخططه الأصيل ومعظم عناصره المعمارية والزخرفية أكثر من أيّ مسجد آخر في العالم الإسلامي، رغم ما تعرّض له في تاريخه الطويل من أحداث الحرائق والزلازل.

٧٧- المهلبي، (الحسن) /ق، ٤هـ/١٠م/، **المسالك والممالك**، قطعة من المخطوط نشرها المنجد في مجلة معهد المخطوطات، المجلد٤،/١٩٥٨/، ص/٥٠/.

٧٨- ابن عساكر، (علي بن الحسين) /٥٧١هـ/١١٥٧م/، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق،/١٩٦٣/، المجلد١٠، ص/١٠٤/.

٧٩- مرسي، (إيناس يحيى أحمد)، **فن العمارة العربية وأشهر معالمها (دراسة)**، مراجعة وتدقيق أمنية الصباح، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، ط١،/٢٠٠١/، ص/٨١-٨٢/.

٦

◆ **نفقات بناء الجامع الأموي:**

دُهش الناس بعظمة المسجد، ولفت انتباههم في بنائه وتزويقه وعظم مؤونتـه[٨٠]، فقـد قيـل إن (الوليد) أنفق على هذا المسجد خراج الدولة /٧/ سنين، وقيل إن حساب ما أنفق على المسجد حُمل علـى (١٨) بعيراً، والحق أن النفقات الكثيرة التي قيل إنها أُنفقت على بناء الجامع الأموي[٨١] لا تكاد تُذكر بجانب هذا الفخر العظيم للعرب ولحضارتهم السامية[٨٢]، فقد سُمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسـجد، ولمـا شاهده التفت إلى رفاقه، وقال لهم: (لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ في بلادي أن سلطان العرب سـيزول عما قريب، أما الآن وأنا أرى كيف يشيدون عمائرهم، فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سـيدوم أحقابـاً طويلة)[٨٣]، وقد صدق الخليفة الوليد عندما وقف أمام أهل دمشق، وقال لهم: (أنتم تفخـرون علـى الـدنيا بخصال أربع: طيب هوائكم، وعذوبة مائكم، ونضارة فاكهتكم، ونظافـة حمامـاتكم، فأحببـت أن يكـون مسجدكم هي الخامسة)، وقد كان[٨٤].

◆ **المخطط والوصف المعماري:**

جاء مخطط المسجد كالمخطط الذي أنشئت عليه المساجد الإسلامية وقـام علـى تنظـيم فـراغ مكشوف ضمن بناء مشيد ولا ريب أنه مستوحى من مسجد النبي (ص) في المدينة المنورة

الجامع مستطيل تبلغ أبعاده (١٥٦×٩٧م)، ويحتلّ الحرم الجانب القبلي، ويليه في الشمال صحن مسـتطيل تُحيط به الأروقة من ثلاث جهات الشمالية والغربية والشرقية، وفيمـا يـأتي وصـفٌ لأقسـام الجـامع: الشكل(١٠)

◆ **السور والأبواب:**

للجامع سور مرتفع مشيد بالحجر المنحوت، هو سور المعبد الروماني في الأصل، جُدّدت أقسـام منه في العصور الإسلامية المختلفة، وكان السور مزوداً في أركانه بأبراج مربعة مؤلفة من عدة طبقـات يُصعد إليها بدرج من الداخل، وقد استُخدمت هذه الأبراج في صدر الإسلام للأذان، بقـي (٢) منهـا فـي الجهة الجنوبية، أُقيمت عليهما مئذنتان.

أما الأبواب فهناك (٣) مفتوحة في الشرق والغرب والشمال، تؤدي إلى الصحن عبـر البوابـات والأروقة، ورابع يؤدي إلى الحرم مباشرة، في الجانب الغربي من الجدار الجنوبي، وأهم هذه الأبواب من

٨٠

٨٠- زكي، (عبد الرحمن)، **الفن الإسلامي**، سلسلة كتابك، الكتـاب رقـم/١٦٤/، دار المعـارف، القـاهرة، ط٤، /١٩٨٥/، ص/١٤/.

٨١- زكي، **الفن الإسلامي**، ص/١٥/.

٨٢- ديورانت، (ول)، **قصة الحضارة**، (عصر الإيمان)، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ص/١٥٩/.

٨٣- قنديل، (محمد المنسي)، **عندما تصلي الأحجار (دمشق ومسجدها الأموي)**، مجلة العربي، العدد/٤٧٨/، الكويت،/١٩٩٨/، ص/٥٥/.

٨٤- محمد، (سعاد ماهر)، **العمارة الإسلامية على مر العصور**، دار البيان العربي، القاهرة،/١٩٨٩/، ج٢، ص/٢٠٣/.

الناحية المعمارية البابان: الغربي باب البريد، والشرقي باب جيرون، وكل منهما يتألف من (٣) فتحات مستطيلة مسقوفة بساكف، الوسطى واسعة يعلوها عقد عاتق دائري (الشكل ١٤)، أما الباب الشمالي باب الفراديس ففتحة واحدة واسعة، ويُخفف الحمل عن ساكف الباب (٢) من العقود العاتقة المجزوءة.

• **الصحن والأروقة:**

يحتل الصحن رقعة مستطيلة تبلغ أبعادها (١٣٢×٥٠م)، يُحيط به من ثلاث جهاته الشرقية والغربية والشمالية رواق عرضه حوالي (١٠م)، يرتفع قليلاً عن مستوى الصحن، ويتألف الرواق من صفّ من القناطر المفتوحة على الصحن، المحمولة على الأعمدة والعضائد، إذ يتناوب عمودان مع عضادة، وهكذا، والأعمدة قطعة واحدة من الحجر الكلسي الصلب، أو الغرانيت القديم، تُتوّجُها تيجان من طراز كورنثي، أما العضائد فمبنية من الحجر، ويعلو القناطر طابق آخر من القناطر الصغيرة، اثنتان فوق كل قنطرة كبيرة، محمولة على عضائد، بين كل اثنتين عمود صغير له تاج كورنثي، وللرواق سقف مستو باطنه من الخشب وسطحه مصفح بالرصاص.

وتُشاهَد في الصحن (٣) قباب صغيرة: إحداها في الغرب، وهي المشهورة بـ (قبة الخزنة)، وهي تُمثل غرفة مثمنة الوجوه في أحدها باب صغير، محمولة على (٨) أعمدة مغروسة في البلاط من دون قواعد، لكنها تحتفظ بتيجانها الكورنثية الجميلة وقد بنيت من الحجر والآجر وكسيت بالفسيفساء، ويقال إن خزينة الدولة ووثائق الوقف وحساباته كانت تُحفظ داخلها، وعليها أقفال الحديد[٨٥]، وينسب المؤرخون القدماء بناءها إلى (الفضل بن صالح العباسي)[٨٦]، والقبة الثانية تقع شرق الصحن تدعى (قبة الساعات)، وقديماً عُرفت بـ(قبة زين العابدين)، وهي محمولة أيضاً على (٨) أعمدة من الرخام ذوات تيجان من طراز بيزنطي بعضها على شكل السلة، ويعلو الأعمدة إطار من الخشب في باطن القبة على شكل مثمن نُقشت عليه زخارف نباتية يدل أسلوبها على أنها من العصر الأيوبي.

وتتوسّط الصحن قبة بركةٌ للوضوء مربعة الشكل، كان يعلوها قبل عدة سنوات قبة على قاعدة مربعة لها في كل ضلع قنطرتان، وتذكر الروايات أنها جُدّدت في عهد الوالي العثماني (عثمان باشا)، أي منذ حوالي قرن؛ لذا أُطلق عليها (القبة العثمانية)، وعُرفت قديماً بـ(الشاذروان)، وهناك على مسافة من البركة من الجهتين غُرس عمودان في الصحن، في رأسيهما ما يشبه الثريا من البرونز المخرم، عُرفا قديماً بـ (عمودي الإسراج)، أي الإنارة.

كانت أرض الصحن وأروقته مبلطة بفصوص الفسيفساء الحجرية، ثم تغيرت معالمها، كما ارتفع مستواها نتيجة أعمال التجديد، وقد تمّ التعرف على المستوى الأصلي للصحن والأروقة بعد إجراء أسبار

٨٥- أبو البقاء، (عبد الله البدري المصري)، **نزهة الأنام في محاسن الشام**، القاهرة،/١٣٨٤هـ/، ص/٤١/.

٨٦- ابن تغري بردي، (جمال الدين يوسف) /٨٧٤هـ/١٤٧٠م/، **النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة**، ج٢، وزارة الثقافة، مصر، ص/٦١/.

عدة ودراسات عليها عام /١٩٥٩م/، ثم تمّ تجديد البلاط وفق المستوى الأصلي الذي تـمّ التوصـل إلـى معرفته، وقد احتُفظ بقطعة من بلاط الفسيفساء القديم في الرواق دليلاً على المستوى الأصلي[٨٧].

- **الحرم:**

تبلغ أبعاده (١٣٦×٣٧م)، ويتألف من (٣) أروقة، أو بلاطات، موازية للقبلة، يمتد بينها صـفان من القناطر مكونة من أعمدة تحمل عقوداً نصف دائرية، فوقها عدد مضاعف من القناطر الصغيرة؛ لزيادة ارتفاع السقف كما في قناطر الصحن. الشكل(١١)

وتتعامد مع البلاطات الثلاث هذه واحدة تمتد من الصحن إلى المحراب، تسميها (المجاز القاطع)، وهي أكثر اتساعاً وارتفاعاً من البلاطات الأخرى، تتوسطها قبة يقارب ارتفاعها (٣٠م)، محمولـة علـى عضائد ضخمة، وقد جُدّدت رقبة القبة بعد الحريق الأخير تجديداً مغايراً لوضعها الأصلي، فتغيرت أشكال نوافذها عن الأصل، ولواجهة المجاز المطلة على الصحن باب فخم مؤلف من (٣) قناطر، الوسطى أكثـر اتساعاً من الجانبيتين، فوقها (٣) طاقات أصغر منها ضمن عقد كبير يحيط بها، ويعلو هذه البوابة الضخمة جبهة مثلثة تشبه جبهة المعابد المألوفة في العمارة الكلاسيكية.

وعلى جانبي البوابة برجان صغيران على شكل مربع، تُتوّجُهما قبة صـغيرة، وكانـت واجهـة الحرم على شاكلة أروقة الصحن تماماً من حيث تصميمها وعناصرها، لكنها جُدّدت في العصر السلجوقي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ بسبب الحريق، وأصبحت بعد التجديـد خاليـة مـن الأعمدة، أي مكونة من عضائد فقط.

أما جدار الحرم الجنوبي فيوجد في وسطه آثار الباب القديم (باب المعبد) ثلاثي الفتحـات، وقـد احتل المحراب الفتحة الغربية منه، وسُدّت الفتحة الوسطى، بينما استُخدمت الفتحة الشرقية للـدخول إلـى المسجد من قصر الخضراء في العصر الأموي، ثم سُدّت في عصر لاحق.

وهناك باب آخر في النصف الغربـي مـن الجـدار، فُـتح عنـد تشـييد المسـجد، وعُـرف بـ(باب الزيادة)؛ لأنه في القسم الذي ضمّه الوليد إلى المسجد الأول، وهو الآن الباب الوحيد الذي يـؤدي مباشرة إلى الحرم، وداخل الحرم في الجانب الشرقي ضريح النبي (يحيى عليه السلام) على شكل قبة من الرخام، جُدّدت بعد الحريق الأخير، وقد كانت من الخشب، وتذكر الروايات التاريخية أنه عُثر على رأسه مـدفوناً عند حفر الأساس، فأمر الخليفة الوليد بأن يُحافظ عليه، ويوضع فوقه عمود مميز.

ويستمد الحرم نوره من نوافذ مفتوحة في جداريه الكبيرين الجنوبي والشمالي، وعددها (٢٢) في كل جدار، تضاف إليها نوافذ المجاز القاطع المفتوحة في واجهتيه وجداريه الجانبيين، ونوافذ القبة.

وكانت هذه النوافذ مزودة بشمسيات من الجصّ المعشق بالزجاج الملون، ومزخرفة بأشكال نباتية وهندسية، أكثر الشعراء والرحالون من وصفها، وقد ميّز (ابن جبير) بين نوافذ الجدار الشمالي وتلك التـي

٨٧- الريحاوي، (عبد القادر)، إسهام في دراسة الجامع الأموي (الصحن والأروقة)، مجلـة الحوليـات الأثريـة السـورية، المجلد١٣، دمشق،/١٩٦٣/، ص/٥٣-٧٠/.

في الجدار الجنوبي، فوصف الأولى بقوله: "قِسيّ جصّية مخرّمة كلها على هيئة الشمسيات، فتُبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه"، ووصف الأخيرة بقوله: (وإشراق شمسياته المذهبة الملونة، واتصال شعاع الشمس، وانعكاسه إلى كل لون فيها، حتى ترى الأبصار منه أشعة ملونة، يتصل ذلك بجداره القبلي كلّه)[٨٨].

• **المشاهد:**

عند تأمّل مخطط الجامع يتبين في جانبيه الشرقي والغربي (٤) قاعات كبيرة مستطيلة، أُطلق عليها اسم (المشاهد) منذ القديم، ونُسب كل منها إلى واحد من الخلفاء الراشدين: الجنوبي الشرقي (مشهد أبي بكر)، والجنوبي الغربي (مشهد عمر) ــ وكانت فيه مخطوطة كتاب (تاريخ الأطباء) للطبيب (ابن أبي أصيبعة) المتوفى سنة /٦٦٨هـ/١٢٦٩م/[٨٩]ــ وهما على طرفي الحرم، أما الشمالي الغربي فدُعي (مشهد عثمان)، بينما دُعي الشمالي الشرقي (مشهد علي)، ثم عُرف بـ(مشهد زين العابدين)، وأُقيم خلفه من الشرق (مشهد الحسين)، ويُقال إن رأس الحسين مدفون فيه، وقد تغيرت أسماء هذه المشاهد في خلال الزمن، واستُخدمت في أغراض شتى، كالتدريس والصلاة والاجتماعات وخزائن للكتب[٩٠].

وقد أُقيمت عشرات المدارس حول الجامع، وكانت حلقات الدرس تتوزع في أنحائه، قال ابن عساكر:(وكان عند كل عمود من أعمدة جامع دمشق شيخ وعليه الناس يكتبون العلم)[٩١].

• **قبة النسر:**

هي تلك القبة التي تُغطي الجزء الأوسط من المجاز الذي يتوسط الجامع الأموي، وقد كان بناء هذه القبة أصعب جزء في الجامع، فقد أرادها الوليد عالية ومتسعة؛ كي يراها الزائرون من بعيد، فيعرفوا أن دمشق تحولت إلى عاصمة إسلامية، وعندما رفعها البنّاؤون على الأعمدة سقطت وتهدّمت تماماً، وأصاب الاكتئاب الخليفة الأموي حين جاء إليه بنّاء شاميّ، ووقف أمامه باعتدال، وقال:(أنا أرفعها، ولكن بشرط)، قال الخليفة: (وما هو؟)، قال البنّاء: (أن تُعطوني عهداً ألاّ يتدخل أحد في عملي، ولا يمدّ أحد يديه عليها غيري)، فقال الخليفة: (لك ذلك)، وبدأ الرجل فحفر حتى بلغ الماء الموجود في جوف الأرض، ثم وضع الأساس حجراً فوق حجر، وغطى كل شيء بالحصى، ثم اختفى، وعبثاً حاول الخليفة وجنوده البحث عنه مدة عام كامل، ورغم هذا برّ الخليفة بوعده، فلم يدع أحد يقترب من البناء، أو يرفع الحصى،

٨٨- ابن جبير، (الكناني الأندلسي ت ٦١٤هـ/١١٩٩م/)، الرحلة، تحقيق د. حسين نصار، دار الطباعة، مصر،/١٩٥٥/، ص/٢٤٨/.

٨٩- ابن كثير، (عماد الدين بن إسماعيل ت ٧٧٤هـ/١٣٥٤م/)، البداية والنهاية، ج١٣، مطبعة السعادة، مصر،/١٩٣٢/، ص/٢٥٧/.

٩٠- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٦١/.

٩١- ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلد١، ص/٦٩/.

ثم ظهر الرجل فجأة، فقال له الوليد: (ما الذي دعاك للاختفاء؟)، فأجاب: (تخرج معي حتى أريك السبب)، وسار الوليد معه، والناس خلفهما، وكشف الحصى، فإذا بالأساس قد غار قليلاً في جوف الأرض، فقال الرجل: (كان هذا هو سبب سقوط القبة في المرة الأولى، الآن ثبت الأساس، فابنوا، فإنها لا تهوي إن شاء الله)، وتواصل البناء، وارتفعت قبة النسر عالياً، وما زالت[٩٢]، ومن ثم ليس في جامع دمشق قباب، إلا قبة النسر، وسميت كذلك لأن القدماء شبّهوا الحرم بالنسر، القبة رأسه، والمجاز جسمه، والبلاطات الممتدة على جانبيه أجنحته، والقبة بوضعها الحاضر لا تشبه الأصل القديم بعناصرها؛ لأن معظمها جُدّد بعد الحريق الأخير عام/١٣١٠هـ /١٨٩٢م/[٩٣].

• المآذن:

إن الأبراج التي كانت قائمة في أربعة أركان المعبد كانت هي المآذن الأولى التي بناها الوليد ابن عبد الملك، وكانت أنموذجية لدى أشباهها فيما بعد في شمال أفريقيا، فهي تنتهي بشُرفة وغرفتة مضلعة ذات باب، تعلوها قبة لم يعد لها وجود، ويؤكد ذلك أن الوليد أمر بإنشاء (٤) مآذن في زوايا مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة[٩٤].

والمئذنة الأموية سواء أكانت واحدة من مجموعة أربع المآذن الركنية، أو كانت مئذنة العروس، هي أول المآذن التي أُضيفت إلى المسجد، وعنها أخذت المساجد الجديدة في مصر والمغرب العربي وفي الأندلس شكلها[٩٥].

وحالياً في الجامع اليوم (٣) مآذن، اثنتان منها تحتلان الركنين الجنوبيين الشرقي والغربي، تدعى الشرقية (مئذنة عيسى أو المئذنة البيضاء)، والغربية (المئذنة الغربية وتدعى مئذنة قايتباي)، أما الثالثة فتدعى (مئذنة العروس)، ومكانها إلى جانب الباب الشمالي (باب الفراديس)، وهي على هيئة برج مربع، ويُرجح أن تكون من أيام الخليفة الوليد، لكن قسمها العلوي مجدد في العصر العثماني، وقسمها الأوسط مجدد في العصر الأيوبي، بعد حريق سنة /٥٧٠هـ/١١٧٤م/، كما تذكر الروايات التاريخية، وتدل العناصر المعمارية على ما يؤيد ذلك أيضاً. أما مئذنتا الحرم فقد أُقيمتا فوق برجي المعبد الروماني.

ويبدو من دراسة النصوص التاريخية أن الجامع كان مزوّداً بمئذنة واحدة هي مئذنة العروس، إضافة إلى استخدام الأبراج الأربعة للأذان منذ الفتح، واستمر ذلك إلى عهد (المسعودي) المتوفى سنة /٣٤٦هـ/٩٥٧م/؛ لأنه قال: (والصوامع فيه لم تُغيّر، وهي مئاثر الأذان إلى هذا الوقت)[٩٦]، وأضاف

٩٢- محمد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ص/٢١٥/.

٩٣- الريحاوي، قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، ج١، ص/١٢٤/.

٩٤- البهلسي، (عفيف)، الجامع الأموي الكبير، دار طلاس، دمشق، /١٩٨٨/، ص/٧٧/.

٩٥- محمد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ص/٢١٥/.

٩٦- المسعودي، (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ/٩٣٩م/)، مروج الذهب،تحقيق محي الدين عبد الحميد،ج٢،مطبعة السعادة، مصر،/١٩٤٨/، ص/٢٥٩/.

(المقدسي): (مئذنة العروس محدثة)، ولعله يقصد أنها أُحدثت في عهد الوليد، وليست من عهد أبراج المعبد الروماني الأربعة[٩٧].

◆ **العناصر المعمارية:**

شُيّد الجامع بالحجر الجيد النحت، وهو تقليد عريق في عمارة بلاد الشام؛ إذ إن مقالعه متـوفرة، وشُيّدت منه العناصر المعمارية الأساسية سواء الجدران والعضائد والأعمدة.

وهناك الغرانيت، وقد نُحتت منه الأعمدة أيضاً، وهي من قطعة واحدة، فوقها تيجان من طـراز كورنثي، معاد استعمالها على الأرجح، وهناك أعمدة رخامية، ولاسيما الصغيرة منها.

أما عقود القناطر المحمولة على العضائد والأعمدة فحجرية شكلها نصف دائري، بعضها مـدبب قليلاً، وبعضها متجاوز قليلاً أو حدوي، ويوجد عنصر مساعد في تركيب القناطر مهمته زيـادة ارتفاعهـا هو حجر بين تاج العمود ورجل العقد على هيئة هرم مقلوب يمكن تسميته (الوسادة).

ويعتمد التسقيف على صفوف القناطر التي تم رصفها، ويزيد في ارتفاع السقف وجود طابق ثان من القناطر الصغيرة، اثنتان فوق كل قنطرة سفلية، ويتكون السقف من هيكل خشبي على شـكل جملـون فوق كل بلاطة، تكسوه من السطح صفائح الرصاص، ومبطن من الداخل بالخشب المزخرف[٩٨].

● **العناصر الزخرفية:** اعتمد بناة الجامع في زخرفته وتجميله على عنصرين هما:

- الرخام:

استخدم في كسوة الجدران والعضائد؛ إذ يؤلف وزرة ارتفاعها قرابة (٤) أمتار، وكان من النوع الذي أطلق عليه القدماء اسم (المجذع)، ولعل السبب في هذه التسمية تشبيه عروقه بالمجـذعات؛ ذلـك أن طريقة الرصف تقوم على تشريح قطعة الرخام إلى شريحتين، أو أربع، ثم رصفها متقابلـة ليتكـون مـن مجموعها شكل رباعي متموج، ولهذا الترخيم ما يُشبهه في قبة الصخرة في القدس، وفي كنيسة آيا صوفيا في إستنبول.

وقد زال الترخيم من جدران جامع (بني أمية) بسبب الحرائق والزلازل، وبقيت أجزاء صـغيرة منه عند دهليز الباب الشرقي تدل على الأصل.

- الفسيفساء:

كانت توضع من أعلى الترخيم حتى السقف، وكذا تكسو العضائد والعقود وواجهات القناطر، وتغلب فيها فصوص الزجاج الملون بين مذهّب ومفضّض، وبينها قليل من الرخام الملون والأصداف، وتتكون من رصف هذه الفصوص لوحات رائعة تمثل مشاهد معمارية، بينها المنازل والجسور والقرى، تحفّ بها أشجار من أنواع مختلفة تجري من تحتها الأنهار، ويحيط بهذه اللوحات إطار من أشكال هندسية، وكانت تحـوي

٩٧- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، /١٥٧/.

٩٨- الريحاوي، قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، ج١، ص/١٢٤/.
البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/٧١/.

آيات قرآنية ونصوصاً تاريخية ذكرها المؤرخون كـ(المسعودي) و(المهلبي)؛ ذلك أن فسيفساء الحرم زالت كلها بسبب الحرائق المتكررة، ولم يبق سوى قطعة صغيرة شوّهها الحريق، وأهم ما بقي منها يوجد في الرواق الغربي والجدار الشمالي من الصحن، والتي تمثل منظراً طبيعياً لدمشق بغوطتها ونهرها ومبانيها آنذاك[٩٩].

وكذلك استُخدم الذهب في التجميل، ولم يعد له أثرٌ اليوم، فقد كانت تيجان الأعمدة مطلية به، وكذا السقوف الخشبية كانت مذهبة[١٠٠]، وشملت الزخرفة أيضاً النوافذ التي كانت مصنوعة من شبابيك الجصّ المعشق بعضه بالزجاج الملون، والتي تقدّم وصفها عند الحديث عن الحرم، وهناك نوافذ الرخام المشبك التي لم يبق منها سوى /٦/ نجدها في قاعة المشهدين الغربيين، لعلّهما الأصل الأموي لسائر النوافذ، وتتكون واجهاتها من الأشكال الهندسية المتشابكة تختلف من واحدة إلى أخرى.

وكان في المسجد كثير من النفائس من أهمها المخطوطات والمصاحف التي كان أهمها (مصحف عثمان)، وهناك قناديل من الذهب والفضة والبلور، معلّقة بسلاسل من الذهب، بلغ عددها (٦٠٠) سلسلة[١٠١]، كذلك اشتهر جامع دمشق بما يملكه من الساعات التي تنوّعت بحسب العصور، واشتهرت منها واحدة كان لها نظام للنهار، وآخر لليل، وكانت مقامة عند الباب الشرقي (باب جيرون)، فهي فتحة كبيرة داخلها طاقات صغيرة لها أبواب من نحاس، كلما مضت ساعة أغلقت واحدة، وقبل إغلاقه تسقط بندقتان من فمي بازين في طاستين من النحاس، فيُسمع دويّها، ولهذه الساعة في الليل تدبير آخر يعتمد على ألواح من الزجاج مستديرة عند كل طاقة، وخلف كل زجاجة مصباح يدور فيه الماء، كلما انقضت ساعة احمرت الدائرة الزجاجية بأكملها، وهكذا في كل ساعة[١٠٢]، وكان التوقيت في المسجد يعتمد في القرون الأخيرة على الساعات الشمسية والساعات الفلكية التي أُطلق عليها اسم (البسيط)، وقد تم العثور على واحدة منها مصنوعة من الرخام كانت تحت أرض الصحن صنعها (ابن الشاطر الدمشقي) عام /٧٧٣هـ/١٣٧١م/[١٠٣].

هذا ويشبه الجامع الأموي في التخطيط المسجد الأموي في حلب الذي بدأ بناءه الوليد وانتهى في عهد أخيه سليمان[١٠٤].

٩٩- الريحاوي، (عبد القادر)، **فسيفساء المسجد الأموي**، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد١٠، دمشق، /١٩٦٠/، المقال بالكامل.

١٠٠- السلطاني، (خالد)، **العمارة في العصر الأموي (الإنجاز والتأويل)**، دار مدى للثقافة و النشر، دمشق،/٢٠٠٦/، ص/١٤٢/.

١٠١- الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/١٢٧- ١٢٨/.

١٠٢- ابن جبير، **الرحلة**، ص/٢٤٣/.

١٠٣- الريحاوي، **قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني**، ج١، ص/١٣٣/.

١٠٤- الحموي، **معجم البلدان** مادة دمشق؛ مادة المسجد الأموي؛ الرفاعي، **الإسلام في حضارته**، ص٣٨٥.

وتبدو القرارات التصميمية في مبنى (قصير عمرة) مختلفة، تماماً، عن تلك الممارسة التصميمية التي رأيناها حاضرة، في عمارة المباني الأموية، سواء كانت عمارة مساجد، أم تكوينات لقصور ملكية. إن سعة جداريات لوحة (الفريسكو) في قصير عمرة، وإكسائها لجميع عناصر التركيب الإنشائي للمبنى من جدران، وسقوف إلى أقواس، يعد بحد ذاته أمراً غاية في الأهمية، ويمثل حدثاً تصميمياً رائداً، وفريداً في منجزات ليس فقط في العمارة الأموية، وإنما في العمارة الإسلامية عموماً، ذلك لأن هذا الحدث الفني لم (يتكرر لا في ناحية الموضوع، ولا في الأسلوب الفني)[١٢٣]، بل إن أحد دارسي الفن البيزنطي، يعترف بأن المساحات الكبيرة لجداريات (قصير عمرة)، واتساعها، وما تمثله من لوحات الفريسكو Fresco، لم يعرف لها نظير، في أي بناء دنيوي قبل فترة الرومانسك Remanesque Period[١٢٤] الأمر الذي يرسخ، مرة أخرى، أهمية هذا الحدث الفني في عمارة المبنى. الشكل(١٧)

تعد الحلول الإنشائية، وتنوعاتها في (قصير عمرة) من الأمور المهمة، في سجل عمارة المبنى، ويعكس تنوع أساليب تسقيفات الفضاءات فيه، عن مستوى عال من الدراية الإنشائية، لدى مصمم المبنى. فالقاعة الرئيسية سقفت بوساطة عقدين كبيرين، يستندان على دعائم جدارية، ترفع أقبية برميلية طولية، وغرف الحمام الثلاث، سقفت بأساليب إنشائية مختلفة. فالغرفة الأولى فيه، كان تسقيفها بوساطة قبو برميلي، والثانية، بقبو متقاطع، والثالثة سقفت بقبة!.

كما يلاحظ، استخدام عنصر إنشائي على جانب كبير من الأهمية في النظام التركيبي (لقصير عمرة) وهو ظهور العقد المدبب The Pointed Arch وتوظيفه في إنجاز رفع التسقيف بالقاعة المركزية، حيث تكون مسافة تجاوز المركزين بأبعاد ١/٥ في باع القوس؛ وهي نسبة عالية جداً مقارنة بسوابقها، لقد كرس استخدام العقد المدبب في المنظومة التركيبية لقصير عمرة، سلسلة من النجاحات الإنشائية في عموم الممارسة البنائية الأموية، وأثّر، لاحقاً في تطور العمارة والإنشاء في حضارات أخرى، ويشير كريزويل، إلى هذا الحدث الإنشائي، ويقول بأن ظهور القوس المدبب، في قصير عمرة، وكذلك في حمام الصرخ، لهو تأكيد على أولوية الشرق فيه، لأنه لا وجود لأمثلة أوروبية معروفة قبل نهاية القرن الحادي عشر الميلادي أو بداية القرن الثاني عشر الميلادي[١٢٥].

٨- قصر الحير الغربي /١٠٩هـ/٧٢٧م/:

يقع في بادية الشام على الطريق بين دمشق وتدمر إلى الشرق من قرية القريتين، وجرى الكشف عن معالمه، ودراسة المنشآت المحيطة به بين عامي /١٩٣٦ - ١٩٣٨/، ونُقلت عناصره المعمارية والزخرفية إلى متحف دمشق الوطني، واستُخدمت في إعادة قطعة من القصر شملت البوابة وجزءاً من الصحن والرواق، والقاعات المجاورة للمدخل في الطابقين الأرضي والعلوي.

١٢٣- بن نايف، (وجدان علي)، الأمويون...، ص/٥٦/.

١٢٤- Dalton, Byzantine Art, P/281/.

١٢٥- Creswell. A Short. E.M.A. p/116-117/

شيد هذا القصر على أنقاض دير بناه (الحارث بن جبلة الغساني) غرب مدينة تدمر. وينسب علماء الآثار بناء القصر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك استناداً إلى نصّ منقوش بالخط الكوفي على باب خان عُثر على أطلاله على بُعد /١٠كم/ من القصر، والقصر مربع الشكل، مؤلف من طابقين، مزيّن بالفسيفساء، وجدرانه مطلية برسوم ملونة، وتحيط به مرافق تامة.١٢٦.

وذكر (الطبري) أن هشاماً كان ينزل الزيتونة في بادية الشام، فلما عمّر الرصافة انتقل إليها، فكانت منزله إلى أن مات١٢٧، كما ذكر ابن كثير (أن الخلافة أتته وهو في الزيتونة في منزل له، (فجاءه البريد بالعصا والخاتم، فسلّم عليه بالخلافة، فركب من الرصافة حتى أتى دمشق)١٢٨.

وقد تساءل الباحثون عن الزيتونة، أهي قصر الحير الشرقي، أم هي نفسها الرصافة، أم هي قصر الحير الغربي، أم هي قصر المفجر؟

ووفقاً لما قام به العالم شلومبرجيه تبين أن قصر هشام كان يُطلق عليه اسم (الزيتونة)، وهو الاسم الأصلي، أما (الحير) فتسمية حديثة استُعيرت من معنى السور الذي كان يحدّه.

وكان سد خربقة يغذي القصر بالماء عن طريق قناة تنتهي بخزان يبعد (١٦,٥كم) عن السدّ، ثم يغذي ماء الخزان القصر والجامع والحمّام والحديقة والطاحون والخان الذي يقع قرب البركة، بالماء اللازم.

ويقع الحمام شمال القصر، وهو مقسم إلى قسمين: بارد، ودافئ، وقد فُرشت أرض القسم الدافئ بالرخام، كما طليت جدرانه بطلاء ملون تقليداً للرخام.

وقد اكتُشف درجان خشبيان يؤكدان وجود طابق ثانٍ، كما عُثر على درابزين رواق الطابق الثاني، وهو يمثل قطعاً جصية منحوتة، وكانت بيوت الطابق الثاني وغرفه مطابقة لنظائرها في الطابق الأرضي، وكان النور يدخل إلى الحجرات عن طريق كوات، أما الفتحات الداخلية فكانت نوافذ عليها مشبكات جصية رائعة التكوين.

ويُستدل على تاريخ هذا القصر من كتابتين: الأولى نقشٌ على ساكف أحد أبواب الخان، وهو محفوظ حالياً في حديقة المتحف الوطني في دمشق، وعليه الكتابة الآتية: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بصنعة هذا العمل "عبد الله هشام" أمير المؤمنين ــ أوجب أجره ــ عُمل على يد (ثابت بن ثابت) في رجب /١٠٩/ للهجرة).

أما الكتابة الثانية فهي على جزء من حجر رخامي أبعاده (٧٥×٦٥ مم)، تبين (شلومبرجيه) فيها بعد الترميم الكتابة الآتية: (من (هشام) أمير المؤمنين إلى "الوليد أبي العباس"، أحمد الله إليك)، ويعتقد

١٢٦- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/١٩٠/.

١٢٧- الطبري، (محمد بن جرير) /٣١٠هـ/، الرسل والملوك، ج٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ص/٧٧/.

١٢٨- ابن كثير، (عماد الدين بن إسماعيل ت٧٧٤هـ/١٣٥٤م)، البداية والنهاية، مطبعة العادة، مصر، /١٩٣٢/، ج١٣، ص/٣٠١/.

(شلومبرجيه) أن هذه الرسالة كانت موجهة إلى (الحجاج بن يوسف)، وهذه الرقعة محفوظة في جناح قصر الحير في المتحف الوطني في دمشق[١٢٩].

والبقعة التي شُيّد فيها القصر بادية خصبة التربة، جُلبت إليها المياه من وادٍ يُدعى (خربقة) ــ كما تقدم ــ مُدّت منه قنوات إلى خزان كبير بجوار القصر، وعُثر حول القصر على آثار حمام وطاحون وبساتين محاطة بسور من اللّبن بلغت أبعاده (٤٤٢×١٠٥٠م).

أما القصر فقد تحول إلى أطلال تظهر فيها أقسامه السفلى المبنية بالحجر الكلسي، وقد أمكن التعرف على مخططه الكامل بعد أعمال التنقيب التي تم بنتيجتها أيضاً العثور على كثير من عناصر القصر المعمارية والزخرفية[١٣٠].

ثم إن المخطط العام للقصر يشبه القصور عامة: سور مرتفع مزود بالأبراج الدائرية ذوات مسقط نصف دائري في الأضلاع، وقريب من الدائرة في الأركان، باستثناء الركن الشمالي الغربي الذي يحتله برج قديم لموقع غساني، وبوابة القصر مفتوحة بين برجين نصف دائريين مزخرفين.

واستُخدم في بناء القصر الحجر إلى ارتفاع مترين، ثم من الطوب والآجر مع عوارض خشبية[١٣١].

القصر مربع الشكل تقريبًا أبعاده (٧١×٧٠م)، يتوسطه صحن يحيط به رواق محمول على أعمدة تنتظم خلفها المجموعات السكنية، وتتألف من (٦) بيوت مستقلة متلاصقة، يحوي كل بيت من (٨) إلى (١٣) قاعة أو حجرة ــ وتجد نظيراً لهذا الترتيب في قصر عنجر١٣٢ ــ أبوابها مفتوحة على الرواق، وفي كل منها قاعة رئيسة في الوسط، ويدخل النور إلى الغرف من الصحن عن طريق الأبواب، أو الفتحات (الشمسيات) فوقها، في حال إغلاق الباب، والشمسيات مصنوعة من الجصّ، يعلوها عقد حدوي، وتعد عملاً فنياً وعنصراً زخرفياً بما تُمثّله من الأشكال الهندسية والعروق النباتية[١٣٣]. الشكل(١٨)

وكشفت أعمال التنقيب التي قام بها (شلومبرجيه) أن القصر كان مزيناً بالفسيفساء الذي بقي منه بعض الألواح الصغيرة مع بعض النصوص التي عُثر عليها مع الألواح قرب المدخل، كما أن بعض الجدران قد زُيّنت بالخشب المنقوش، وقد عُثر على قطع منها تحتفظ ببعض الرسوم الملونة والمذهبة تمثّل أزهاراً وأشكالاً هندسية انحصر وجودها في البناء الداخلي، أما جدران الغرف فكانت مطلية برسوم ملونة

١٢٩- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/١٩١، ١٩٢/.

١٣٠- الريحاوي، (عبد القادر)، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، /١٩٧٩/، ص/٦٣/.

١٣١- محجوب، (فاطمة)، الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، المجلد٥١، القاهرة، /١٩٩٧/، ص/١٣٠/.

الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٦٧، ٦٩/.

١٣٢- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/١٩٣/.

١٣٣- السلطاني، (خالد)، العمارة في العصر الأموي (الإنجاز والتأويل)، دار مدى للثقافة والنشر، دمشق، /٢٠٠٦/، ص/١٨٨/.

بعضها زخرفي لا يمثل أشخاصاً أو حيوانات، وهي تُزيّن غرف الطابق السفلي من البناء، وهذه الزخارف على (٣) أنواع:

منها ما يمثل شرائط أفقية عريضة، وقد استعمل فيها (٣) ألوان هي الأبيض والحديدي والخمري.

ومنها ما يمثل تمشيحاً ملوناً يشبه الرخام، يصور عمداً مشابهة تقوم في الزوايا مؤلفة من انتفاخات متكررة.

ومنها ما يمثل رسوماً هندسية أو نباتية، واحد منها فقط يمثل حيواناً خرافياً. تُضاف على هذه الرسوم، وعلى صف موازٍ، دوائر تزيينية ممشحة.

وتتألف زخرفة قصر الحير الغربي من الزخارف الجصية الشكل(١٩) في واجهة القصر، ومن الزخارف الجدارية المشابهة للتمشيحات الرخامية، ومن زخرفات الكوارث ومن الصور الملونة الكبيرة، حيث يوجد في واجهة القصر مجموعات من الزخارف الجصية النافرة منتشرة بارتفاع (١٤,٤٥م) على البرجين المحيطين بالمدخل الشرقي الوحيد.

ومن أهم الألواح التزيينية التي ما زالت في وضع جيد صورتان كبيرتان أعيد تركيبهما في القسم العلوي من جناح قصر الحير الذي أعيد بناؤه في المتحف الوطني في دمشق، وألوان هاتين الصورتين أصبحت باهتة مع الأيام، وكانتا تغطيان أرضية زوايا الدرج، ويُعتقد أنهما تقليد للفسيفساء أُقيمتا حيث عزّت أحجار الفسيفساء وتقاليدها.

تتألف الصورة الأولى من شكل دائري في الوسط يضم صورة نصفية لامرأة تمسك قطعة قماش مليئة بالفواكه، وقد طوقت عنق هذه المرأة أفعى، مما يذكرنا بصورة (جيا) إلهة الأرض، ويحيط بالشكل الدائري نطاق فيه دوائر صغيرة متتابعة فيها رسوم نباتية، ويُزيّن أطراف الدائرة من الخارج زخرفة نباتية محورة يعلوها مخلوقان ببدن إنسان ورأس حيوان وقدميه وذنب أفعى، أطلق عليهما (شلومبرجيه) اسم القنطورس البحري، وصور حيوانات الجهة الأخرى لم تعد واضحة؛ لتلفها، وهي تمثل ثعلبين: أحدهما يأكل عنباً، وطيرين من الكراكي، وكلب يتعقّب حيواناً آخر، ويحد الصورة من الطرفين شريط من الزخارف النباتية ستصبح في الرقش العربي أساساً للزخرفة والتزيين.[١٣٤]

أما الصورة الثانية فتتألف من مستطيل كبير مقسم على (٣) أقسام ذات ارتفاع غير متساو، ويحيط بالصورة كلها شريط زخرفي مؤلف من وردة مكررة ذات (٤) وريقات، وموضوع القسم العلوي موسيقيان: امرأة تعزف على العود، ورجل ينفخ في ناي، يفصلهما قوسان منفصلان، وقد وجد الفنان المصور أنه من الممكن إشغال بعض الفراغ في الصورتين، فأضاف غرستين ملونتين في كل قسم، وظهر

---

[١٣٤]- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/١٩٦/.

في القسم الثاني فارس يسابق الريح يطارد الغزالين، فيسقط أحدهما على الأرض جريحاً، بينما يهرع آخر وقد التفت مذعوراً إلى قناصه الذي يُسدّد سهمه باتجاهه.

وتبدو هذه المشاهد مألوفة في الفن الساساني؛ ثم إن ظاهرة الاهتمام بالتقاليد الفنية الساسانية تُفسّر تطلُّع هشام بن عبد الملك إلى توسيع نفوذه باتجاه الشرق الفارسي بعد أن يئس من القضاء على الروم.

يمتاز قصر الحير الغربي باحتوائه على نوعين من النحت:

أحدهما.. النحت الزخرفي، ويمثل أشكالاً نباتية محورة أو هندسية مجردة مصنوعة من الجص البارز في الواجهة، أو من الجص المفرغ في النوافذ، وهذا النوع من الزخرفة هو بداية الرقش العربي (الأرابيسك)، رغم استيحائه من عناصر ساسانية ورومانية.[١٣٥]

والثاني.. النحت التشبيهي الذي حفل به القصر الذي يشابه بأسلوبه وطريقة تنفيذه النحت الذي عُثر عليه في قصر المفجر قرب أريحا، ومن ذلك يمكن القول منذ الآن إن وحدة أسلوب النحت في هذين القصرين واضحة جداً، ومن أهم اللقى النحتية التشبيهية التي عُثر عليها وأُعيد ترميمها، تمثال شخص يُمكن أن يكون الخليفة (هشام)، ويؤكد ذلك مقارنته مع تمثال مشابه وُجد في قصر المفجر، ويُعتقد أن مكان هذا التمثال هو الجبهة الخارجية فوق الباب مباشرة، وفي أعلى الواجهة صفٌ من التماثيل النصفية عُثر على (٣) منها تمثل نسوة عاريات، وفي مكان آخر (٣) قطع منحوتة لـ (٣) خراف وحيوانات أخرى يميز من بينها فهود، وفي طرف القوس العلوي الأيمن أُعيد تركيب تمثالين الشكل(٢٠): أحدهما رجل مضطجع تجلس إلى جانبه امرأة في وضع يُشبه أوضاع التماثيل التدمرية الجنائزية، وثمة تماثيل أخرى يُعتقد أنها كانت في جدار رواق الطابق الثاني من الواجهة الداخلية الشرقية، وقد أُعيد تركيب ما عُثر عليه، من ذلك تمثال بارز ملون لفارس متّجه إلى اليمين فَقَدَ رأسه، وبقي معطفه وكتانته، ومنها تمثال رجل جالس على عرش قائمتاه محززتان، ويضع قدميه على كرسي صغير، ولم يبق من هذا الرجل إلا نصفه السفلي، وهو ملون أيضاً، ثم تمثال نسر باسط جناحيه بأرياش منتظمة أفقياً، وثمة تماثيل أخرى، كتمثال امرأة في وضع متحرك ذات ثوب شفاف ملتصق على جسمها المكتنز، وتمثال امرأة عارية الصدر رأسها مفقود، وجذع تمثال لامرأة عارية الصدر، ونصف تمثال رجل، وغير ذلك، إضافة إلى زخارف خشبية[١٣٦].

---

١٣٥ - البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/١٩٤/.

١٣٦- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/١٩٤/.

محمد، (سعاد ماهر)، الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، /١٩٨٦م/، ص/٢١٥، ٢٢٦/.

علام، (نعمت إسماعيل)، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، دار المعارف، مصر، ط٢، /١٩٧٧/،ص/٢٥، ٢٧/.

٩- قصر الحير الشرقي /١١٠هـ/٧٢٨م/:

في البادية السورية منشآت أخرى مماثلة يُطلق عليها (قصر الحير الشرقي)، وتقع إلى الشمال الشرقي من تدمر، على مسافة (١٠٠كم) تقريباً، حيث تُوجد أطلال قصرين كبير وصغير وحمام، وبجوارهما سور واسع بطول يزيد عن (٦كم)، مدعم بدعامات، وفي أحد أجزائه فتحات ذات أقواس عادية يمكن إغلاقها بأبواب من الخشب، وثمة قناة تنقل الماء من مكان بعيد جداً تمتد (٥٧٠٠م)، تنقل المياه إلى هذه المدينة، يحتمل أنها من قبل الإسلام، وهذه الأرض التي يمكن تنظيم الري فيها لا بد من أنها قد استُعملت لزرع بعض النباتات ولإقامة الفلاحين؛ إذ تضم حماماً وأسواراً لبساتين ومزارع، وهذا يؤكد ما سلف ذكره من أن القصور الأموية كانت وحدات سكنية في قرى أو مجمعات ريفية، وقد شغلت هذه الوحدات السكنية دوراً تجارياً مهماً؛ لموقعها وفعاليتها١٣٧.

وقد اختلف العلماء في تاريخ إنشاء قصر الحير الشرقي، وفي الاسم الأصلي للموقع، ورأى العالم الأميركي (غرابار) الذي تولى أعمال التنقيب في السبعينيات أن الاسم القديم للموقع هو (العرض)، وأن القصر الصغير كان خاناً أو محطة للقوافل، لا قصراً، ورأى كذلك أن القصر الكبير كان مركزاً إدارياً يرجع تاريخ بنائه إلى العصرين الأموي والعباسي من دون تحديد التاريخ[١٣٨].

وفي رأي (غرابار) تناقضٌ ظاهرٌ في تحديد وظيفة المنشآت؛ لأن محطة القوافل لا تستدعي وجود حمام على مستوى رفيع، وبساتين أحيطت بها أسوار متقنة البناء، جُلبت إليها المياه من مسافة تقدر بـ(٣٠م)، كما أن المركز الإداري في القصر الكبير لا يتفق مع محطة للقوافل، بل هو مكمل لقصر الخليفة وما يتطلبه من خدمات أساسية.

وعلى كل حال، ما يهمنا هنا هو الناحية المعمارية، وسيتبين عند وصف العمائر أن الفن ــ مما لا شكّ فيه ــ أموي، وعلى الأرجح من عهد الخليفة الأموي (هشام بن عبد الملك)، كما تدل النصوص والكتابات، ولعل ترميمات وإصلاحات أُجريت على المباني في عهد لاحق غيّرت من معالم بعض العناصر[١٣٩].

• **القصر الصغير:**

شكله مربع غير منتظم، طول ضلعه حوالي (٧٠م)، وما زال يحتفظ بالجزء الأعظم من أسواره المبنية بالحجر الكلسي الجيد النحت، حتى ارتفاع (١٥م)، وقد تهدّم أكثر المنشآت الداخلية المبنية بالآجر، والسور مزود كالعادة بأبراج دائرية، (٤) في الزوايا، واثنان في كل ضلع، تنتهي في أعلاها بغرفة مراقبة مسقوفة بقبة مزودة بالمرامي، وكان يعلو الأسوار ممرّ دفاعي للوصول إلى الغرف المذكورة، عرضه (١,٦٠م)، مزود بستائر من الآجر.

١٣٧- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج١، ص/١٨٨/.

١٣٨- الريحاوي، (عبد القادر)، **قصر الحير الشرقي**، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشق، /١٩٧٧/، المجلد٢٧، ص١٥.

١٣٩- السلطاني، **العمارة في العصر الأموي (الإنجاز و التأويل)**، ص/١٩١/.

وللقصر باب وحيد يتوسط الجدار الغربي، مفتوح بين برجين، ويؤدي إلى الصحن عن طريق دهليز.

ولم تتضح تفاصيل مخطط القصر بسبب الأنقاض المتراكمة في الداخل وتهدُّم سقوف البيوت. الصحن السماوي مرصوف بالبلاط، يحيط به رواق على أعمدة، ووراء الرواق البيوتُ التي تبدو سقوفها مبنية بالآجر على شكل قباء طولية[١٤٠].

بوابة القصر أقل فخامة من مثيلتها في قصر الحير الغربي، لكنها مزودة بعنصر دفاعي مهم هو الروشن (شرفة بارزة من الحجر مزودة بسقاطتين لصب السوائل المغلية)، ويُعد هذا أقدم عنصر من نوعه في العمارة الإسلامية. الشكل(٢١)

أما فتحة الباب فمستطيلة، سعتها (٣م)، مسقوفة بساكف معقود بالحجارة المعشقة، فوقه عقد عاتق على شكل قوس حدوي، وعلى جانبي الباب محرابان صغيران. الشكل(٢٢)

الزخارف في القصر قليلة، ولا تماثل ما في قصر الحير الغربي، والأبراج في قممها تُظهر نظاماً زخرفياً أخّاذاً أصيلاً من الآجر والجصّ، تبدأ من الأدنى بالزخارف الموجية المستقيمة، ويتلو ذلك مدماكان من الآجر الصغير بمساحة (١٠سم٢) تقريباً، مرصوف على شكل معينات، ثم مدماك آخر من الآجر، وفوق ذلك مباشرة المدماك الأخير من الأحجار، يرتكز عليه عقد القناطر الزائفة الجذّاب المؤلف من سلسلة من الألواح المستطيلة التي يقسمها زوجان من الأعمدة الصغيرة الجزعة والمؤلفة من سلسلة من الحلية السهمية المتعرجة، وقد وُجد القوس في الأعلى مزيناً بنباتات الأكانتوس، ولكن التطعيم في الألواح تالف جداً، فالزخرفة ليست محفورة بل ناتئة، ويبدو أنه تم استعمال (٤) زخارف، ويعلوها كلها مدماك من الآجر الموضوع ليُشكل زخرفة على شكل أسنان الكلب، وفوقه عدة مداميك من الآجر العمودي، وفوقها القبة الآجرية التي تتوج البرج بعد الارتداد عن وجه الجدار، والإفريز الرواقي يمتد بين الأبراج[١٤١]، والأبراج الباقية تعالج كالآتي: الشريط الأول من الآجر الذي يتألف من (٥) مداميك، ويمتد بجانب السور، وحول كل برج، ثم تتلوه (٣) مداميك من الحجر، وبعدها شريط من الآجر المربع الصغير الموضوع على شكل معينات، ثم (٣) مداميك أخرى من الحجر، وبعدها شريط أخير من (٤) أو (٥) مداميك من الآجر الذي تعلوه قبة من الآجر، وكل برج ــ في حال بقائه فوق ممرّ التراس ــ له غرفة صغيرة فوقها قبة ما عدا البرج المجاور للمدخل من الجهة الشمالية الذي يبدو أن فيه درجاً حلزونياً، ولكن الدرجات كلها اختفت، ولم يبق إلا أسطوانة فارغة، والطابق العلوي الذي لا تزال بعض غرفه قائمة في الركنين الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي، ولا بدّ من أنه كان ذا سقف خشبي؛ لأننا نستطيع أن نرى حفر العوارض الخشبية على طول جدران البناء على مسافة (١,٥م) تحت المتاريس[١٤٢].

١٤٠- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٧١، ٧٤/.

١٤١- الريحاوي، (عبد القادر)، **قصر الحير الشرقي**، المجلد٢٧، ص١٦.

١٤٢- البهنسي، (عفيف)، **الفن الإسلامي**، دار طلاس، دمشق، ط٢ ،١٩٩٨/، ص/٢٥٩/.

• القصر الكبير:

أشبه بمدينة صغيرة أُنشئت إلى جوار قصر الخليفة؛ لتكون منزلاً للحاشية، وهناك قرائن كثيرة تؤيد هذا الرأي، منها أن كلمة (المدينة) وردت في نص تاريخي عُثر عليه في الموقع، وقد نسب النص بناء المدينة إلى الخليفة الأموي (هشام بن عبد الملك) عام/١١٠هـ/٧٢٨م/، ونجد في المخطط أسواراً زُوّدت بـ(٤) بوابات مستطيلة الشكل تتصل بشوارع على محاور متعامدة تؤدي إلى الساحة العامة، ثم إلى البيوت المستقلة الموزعة حولها، ومما عثرت عليه بعثة التنقيب من آثار: معصرة للزيت بالقرب من المسجد الذي يحتل الزاوية الجنوبية الشرقية، والمؤلف من صحن وحرم، وأخيراً فإن المساحة تزيد على مثلي مساحة القصر الصغير، فهو مربع طول ضلعه (١٦٠م). الشكل(٢٣)

أما من ناحية الفن، فإنا لا نجد أيّ زخارف في البوابات والأسوار، وهذا يتفق مع وظيفة البناء المشار إليها، كما أن تخطيط المسجد مماثل تماماً لجامع (بني أمية) في دمشق، سوى أن مئذنته منفصلة عنه؛ إذ جُعلت بين القصرين على شكل برج مربع، ومداخل أبواب الأربعة المستطيلة تعلوها عقود عاتقة، لكنها تختلف عن عقد القصر الصغير؛ إذ تبدو حدوية مدببة، وهنا نجد أقدم أنموذج لهذا العقد.

وأربعة المداخل متطابقة تقريباً، يتألف كل منها من مدخل عرضه أقل من (٣م)، فوقه عارضة أفقية معشقة؛ وفوقها قوس عاتق مرفوع قليلاً ومدبب قليلاً، وقلب مقصّه ممتلئ بالحجارة المرتدة إلى خلف بمقدار (٤سم) عن وجه القوس، وفوق كل مدخل روشن فيه كوّتان سقاطتان فوق (٣) كتائف و(٣) طبقات من الزخرفة، وروشن المدخل الشمالي أعرض من البقية، وترتكزان فوق (٥) كتائف معقدة، والوسطى منها مزينة بوردة دائرية، أما في قلب مقصّ النوافذ فتقوب متباعدة بمقدار (٢٥سم)، الغرض منها إيجاد مقيض للمونة التي أُلصقت فوقه زخارف القيشاني، وليس هناك أيّ مثال لهذه الزخرفة القيشانية في العمارة الإسلامية المبكرة في مثل هذا التاريخ المبكر، ومن المرجح أن الزخرفة كانت جصية؛ لأنها مستعملة على الأبراج على جانبي مدخل الفناء الصغير.

وأنشئ المسجد في الركن الجنوبي الشرقي من فناء القصر الكبير، وهو مؤلف من صحن مساحته (٢٨م٢) محاط بأروقة محمولة على عضادات وأعمدة، ويتصل به الحرم، تحمل أسقفه أعمدة وعضائد رخامية ذات أقواس، ويعود هذا المسجد حسب كتابة اكتشفها (دوسو)إلى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك/١١٠هـ/٧٢٨م/، ومن عمل أهل حمص على يد (سليمان أبي عبيد)[١٤٣].

أما الداخل فلا يحتوي على أيّ أبنية، ما عدا بقايا البناء الوحيد في الركن الجنوبي الشرقي الذي لا بد من أنه أنشئ بعد إتمام الفناء نفسه؛ لأن هنالك انفصالاً عمودياً كاملاً بين بنائه وبين ثلاث العضائد المتصلة به، والبناء مسجد من دون شكّ؛ إذ إن صفّ الأعمدة بمحاذاة الجدار الجنوبي هو الواجهة المطلة على الصحن، والفحص يكفي ليظهر: أن صفّي الأعمدة التي تحتوي كل منهما على (٣) أعمدة تمتد من

١٤٣- الريحاوي، (عبد القادر)، قصر الحير الشرقي، المجلد٢٧، ص١٧-١٨.

الشمال إلى الجنوب ما هي إلا الجناح العرضاني (المجاز القاطع)؛ لأنها تتخذ شكل حرف (T)، وأن صفّي الأعمدة التي تقسم الحرم إلى (٣) بلاطات لا بدّ من أنها انتهت مقابل الواجهة الخارجية للحرم، والمطلة على الصحن، وليس من الممكن تحديد الارتفاع الأصلي للجناح العرضاني؛ إذ يمكن أن يكون أعلى من الارتفاع الحالي للجدران الآجرية بمتر واحد، ولكن البقايا الفعلية له ــ وهو ثاني أقدم مسجد جامع في سوريا ــ كافية لتؤكد التأثير السائد لمسجد دمشق الكبير، وتقع المئذنة بين فنائي القصرين، على شكل برج مربع بسيط يبلغ متوسط ضلعه (٢,٩٤م)، وارتفاعه حوالي (١٠م)، ولكن قسمه العلوي مفقود[١٤٤]، أما المدخل فيؤدي إلى الدرج الحلزوني من الجهة الجنوبية، والقمة الحالية بمستوى ما كان متراساً للفناء الصغير، ويمكن أن تكون أعلى مما هي عليه الآن بمقدار (٢-٣م)، ومن ثم أشرفت على الفناءين كليهما.

إن فقرات العقود المعشقة هي ذات التأثير من العمارة السورية قبل الإسلام مثال بيت لحم في المدخل الأوسط لواجهة الرزاق لعهد (جستنيان)، وفي بازلكا سيرجيوبوليس في الرصافة حوالي عام (٦٠٠م)، ومن المرجح أن فقرات عقود قصر الحير المعشقة مشتقة من الرصافة؛ نظراً لأنها على مسافة أقل من (٤٠كم)، أما السقاطات فلها أنموذجات في الحضارات السابقة للإسلام في شمال سوريا، مثل تلك التي في دير قيتا؛ إذ تبدو كأنها حصن مراقبة منعزل تاريخه (٥٥١م)، كما أن هذه الوسيلة الدفاعية مستخدمة في أميدا (ديار بكر) بتاريخ /٥٠٤م/.

ويُعد استعمال الآجر في قصر الحير أمراً غريباً؛ لأن سوريا قبل الإسلام كانت بلد العمارة الحجرية، ثم إن الآجر المستخدم في قصر الحير أصغر وأسمك من الآجر البيزنطي الصغير؛ إذ إنه يشبه الآجر المستخدم في بوابة بغداد في الرقة عام /٢٧٢هـ/، وطبقات المونة أقل سماكة من الآجر، كما هي الحال في أعمال الآجر العراقي؛ لذا يُظهر قصر الحير مزيجاً من التأثير بينه الاستعمال الزخرفي لأعمال الآجر لإعطاء تأثير مخطط بيزنطي للبناء، ولكن الآجر نفسه وطبقات المونة هي من بلاد ما بين النهرين[١٤٥].

أما مياه القصر فتأتيه من نبع الكرم على بُعد (٣٠كم)، وقد استمرت الحياة فيه حتى العصر الأيوبي[١٤٦].

١- حمام السراج (الصراخ) /٧٢-٧٣٠/:

يقع مبنى الحمام في وادي الضليل بالبادية الأردنية على بُعد (٥٠كم) عن العاصمة الأردنية ــ عمان، وعلى مسافة نحو كيلومترين جنوب شرق قصر الحلابات.

١٤٤- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/١٨٩/.

١٤٥- كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ص/١٦٥، ١٧٠/؛ الريحاوي، (عبد القادر)، قصر الحير الشرقي، المجلد٢٧، ص١٩-٢٣.

١٤٦- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/٧٧/.

❖ الصفات العامة للعمارة الأموية:

١- تتميز العمارة الأموية بأنها قوية ومتينة، تشبه الحصون، فهي تحتوي على الأسوار المرتفعة المزودة بالأبراج .

٢- الأقسام الداخلية تتألف عادة من باحة سماوية تحيط بها الأروقة المسقوفة، تتقدم مجموعة من البيوت.

٣- شيدت العمارة الأموية إجمالاً بالحجر المتوفر في بلاد الشام، وإلى جانبه الآجر أو اللبن المغشى بالجص أو الكلس أحياناً.

٤- أهم العناصر المعمارية في العمارة الأموية هي الأعمدة الرخامية أو الحجرية، والعضائد ثم العقود النصف دائرية وأحياناً (العقد الحدوي) أي الذي يتجاوز نصف الدائرة قليلاً، أما العقد المدبب فكان قليل الاستعمال.

٥- أما التسقيف، فنجد السقف المستوي المصنوع من الخشب، والإقباء المعقودة، واستخدمت القبة على مقياس ضيق وكانت صغيرة الحجم نصف كروية، واعتمد على المثلثات الكروية لملء الفراغ في زوايا الانتقال في القباب بين المسقط المربع والمسقط الدائري.

٦- أما أهم العناصر الزخرفية المستخدمة في العمارة الأموية فكانت الفسيفساء في الأرضيات، والرخام في كسوة الجدران، والرسوم الجدارية نجدها في الجدران الداخلية، مثلت فيها صور الإنسان والكائنات الحية بأسلوب فني رائع ومعبر.

الفصل الرابع

العمارة الإسلامية في العصر العباسي

أولاً.. تمهيد تاريخي:

ينتسب خلفاء الدولة العباسية كما هو معروف إلى أولاد العباس عم الرسول (ص) وأحفاده الذين أفادوا من أخطاء الأمويين ونقمة المعارضين والناقدين والمتشيعين ضدهم فتكتلوا مع أبناء عمومتهم من أولاد علي بن أبي طالب (رض) وأحفاده. وكان هؤلاء في نظر الكثرة من المسلمين أصحاب الحق بالخلافة، لا سيما بعد الخلفاء الراشدين (رض). وبالتالي فإنهم يعتقدون أن خلفاء بني أمية مغتصبون للسلطة، تجوز محاربتهم. وهكذا قامت في وجه الأمويين فتن وثورات عديدة كان آخرها تلك التي قادها البيت العباسي. وسبقتها حركة سرية منظمة كانت الحميمة الواقعة بالقرب من خليج العقبة في الأراضي الأردنية مقرها. وكانت الكوفة وخراسان البيئة الصالحة لانتشار الدعوة.

ومن هذه المواقع كان الدعاة ينشطون لإثارة عامة المسلمين ضد الأمويين والدعوة لبني هاشم أو للرضا من آل محمد بديلاً عنهم.

ولقيت الدعوة دعماً كبيراً في الولايات الشرقية، وانطلقت الشرارة الأولى من أرض الفرس وخراسان على الخصوص. قادها زعيمهم أبو مسلم الخراساني. وانتصرت الثورة على جيوش الأمويين، وقتل مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية. تم ذلك في عام ١٣٢هـ/٧٤٩م.

وبويع أبو العباس (١٣٣-١٣٧هـ/٧٥٠-٧٥٤م) ليصبح الخليفة الأول في مدينة الكوفة التي عدت العاصمة الأولى الجديدة. وحكم أبو العباس الذي لقب بالسفاح أربع سنين. وطد خلالها أركان الدولة ثم توالى بعده على الخلافة رجال عظام أمثال أخيه أبي جعفر المنصور بن العباس (١٣٧-١٥٩هـ/٧٥٤-٧٧٥م الخليفة الثاني) والمهدي بن المنصور (١٥٩-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م الخليفة الثالث) والهادي بن المهدي (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م الخليفة الرابع) وهارون الرشيد بن المهدي (١٧٠-١٩٤هـ/٧٨٦-٨٠٩م الخليفة الخامس) والأمين بن الرشيد (١٩٤-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م الخليفة السادس) والمأمون بن الرشيد (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م الخليفة السابع) والمعتصم بن الرشيد (٢١٨-٢٢٨هـ/٨٣٣-٨٤٢م الخليفة الثامن) والواثق بالله بن المعتصم (٢٢٨-٢٣٣هـ/٨٤٢-٨٤٧م الخليفة التاسع).

وبانتهاء خلافة الواثق عام ٢٣٣هـ/٨٤٧م ينتهي القرن الأول من الخلافة العباسية أو ما تعارف عليه المؤرخون بالعهد العباسي الأول. وتلاه عهد سادت فيه الفوضى وضعفت سلطة الخلفاء وقوي قادة الجيش من المرتزقة الأتراك والفرس وتجزأت الدولة.

ويبدأ هذا العهد بخلافة المتوكل بن المعتصم (٢٣٣هـ/٨٤٧م الخليفة العاشر) الذي انتهت خلافته بمقتله على أيدي قواد جيشه الأتراك. وكان هذا الحدث بداية زوال هيبة الخلافة. وتعرض أكثر الخلفاء بعده للقتل أو التعذيب أو الخلع، ومن سلم منهم لم يكن يملك سلطة حقيقية. واستمر الحال كذلك إلى أن

المساجد والقصور حداً ليس في أيّ مجتمع آخر، ويكفي للتدليل على ذلك أن نستشهد بقول (المتوكل) حين احتفل بالانتقال إلى قصره الجديد في الجعفرية: "الآن علمت أني ملكٌ؛ إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها"[١٩٣].

وعلى صعيد العمارة الدينية في العصر العباسي فقد أكثر العباسيون من بناء المساجد بالمساحات الضخمة والأسوار العالية والمآذن الفريدة التي لم يعرف مثلها من قبل في العمارة العربية وهي المئذنة المعروفة بالملوية في جامع سامراء وجامع ابي دلف والتي تأثرت بها مئذنة جامع ابن طولون بمصر والذي شيد على غرار جامع سامراء.

وعلى صعيد العمارة المدنية فقد اهتم العباسيون بإنشاء القصور الضخمة الفخمة التي تشهد بالإبداع المعماري مثل قصر الجوسق الخاقاني وقصور المتوكل في مدينة سامراء مثل قصر المختار والوحيد وقصر بلكورا وكذلك قصر الاخيضر الذي يعد من أحد روائع العمارة العربية الإسلامية.[١٩٤] الشكل(٢٩)

ثانيًا.. خصائص العمارة الإسلامية في العصر العباسي:

مع إنشاء المدن وتشييد العمائر يتقدم فنّ العمارة، ويتطور، وتتخذ المباني مظهراً خاصاً يميزها عن العمائر العربية الإسلامية التي شُيّدت من قبل، يضاف إلى ذلك ما حدث من المتغيرات إثر قيام الدولة العباسية، كانتقال مركز الدولة من دمشق إلى بغداد، وما تبعه من تلوّن مظاهر الحضارة كلها بلون البيئة الجديدة، وهي بيئة لها مقوماتها الجغرافية والبشرية، ولها تقاليدها وأذواقها الموروثة.

وهكذا ظهرت أعمال فنية وعمائر عباسية متأثرة بالفنون الفارسية والرافدية، تماماً كما تأثرت نُظُمُ الحكم والمظاهر الأخرى للحياة بالعادات والتقاليد الفارسية، ولكن لا نتفق مع مَنْ يُبالغ مِنَ المستشرقين لدى الحديث عن هذه التأثيرات إلى حدّ قول إن الخلفاء من (بني العباس) أصبحوا ورثة الأكاسرة ملوك المدائن (كتيزيفون).

إذن، فالعمارة العربية الإسلامية التي وُضعت أُسسها في العصر الأموي سلكت مرحلة جديدة في طريق التطور بعد قيام الدولة العباسية، وتظهر ملامح هذا التطور في العمائر التي ما تزال باقية حتى اليوم، على مستويات مختلفة من الصيانة في العراق والولايات الإسلامية الأخرى التي تأثرت إلى حدّ ما بالاتجاهات الجديدة التي انتقلت إليها من العواصم الجديدة ممتزجة مع ما تمتلكه من تقاليد محلية.

وسيتم التعرف على خصائص العمارة العباسية في تصميمات هذه العمائر، وفي عناصرها المعمارية والزخرفية.

فمن حيث التصميم اتصفت العمائر العباسية عامة كالقصور والمساجد:

- بالضخامة والمساحات الكبيرة التي تحتلها.

١٩٣- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٩٣/.

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/٨٢/.

٣- مرسي، فن العمارة العربية و أشهر معالمها (دراسة)، ص/١١١/.

- وباتساع باحاتها إذا ما قورنت بمثيلاتها في العصر الأموي.
- وسماكة أسوارها المدعمة غالباً بالأبراج الدائرية الشكل، أو بالدعامات الجدارية.
- كما تميزت القصور خاصة: بتعدّد أجنحتها، واتساع حدائقها، ووجود السراديب، وبِرَك الماء.
- وتميزت القاعات الهامة بالقباب الفخمة.

١. **العناصر المعمارية:**

• **التسقيف**.. شاع فيه استخدام:

- الأقباء المعقودة.
- والسقوف المستوية المحمولة على العضائد المستطيلة المبنية بالآجر بدلاً من الحجرية التي أصبح استخدامها محدوداً.
- والأواوين.
- والأبواب المقنطرة المعقودة بالأقباء.

• **العقود**.. ظهر منها شكل جديد عُرف بـ(القوس العباسي) الذي اعتاد مؤرخو العمارة تسميته بـ(القوس الفارسي)، وهو من النوع المدبب أو المكسور، لكنه يختلف عن ذلك الذي استُخدم من قبل، الذي يتألف من قوسين يُرسمان من مركزين واقعين على خطّ الأقطار، ويُشبه قوساً نصف دائري جرى كسره من منتصفه، أما العقد العباسي فيتألف من (٤) أقواس تُرسم من (٤) مراكز: قوسان متماثلان في الأعلى قريبان من المستقيم، لهما نصف قطر كبير، وقوسان في الأسفل متماثلان أيضاً، لهما نصف قطر أصغر، وهما أكثر تحدّباً، ويوجد مثلاً واضحاً لهذا القوس الجديد: في باب بغداد في مدينة الرقة (الرافقة) السورية، وفي حصن الأخيضر في بادية العراق، وفي قصور سامراء وجوامعها، وفي عمائر كثيرة شُيّدت فيما بعد في إيران وغيرها، وسيتطور العقد العباسي ليصبح قسمه العلوي أحياناً قوسين مقعرين قليلاً أو كثيراً، يُرسمان من مركزين خارج العقد، وذلك في عمائر الأقاليم الشرقية، والعمائر العثمانية فيما بعد خاصة، هذا إلى جانب عقود لها وظيفة زخرفية أكثر منها إنشائية كالقوس المفصص والمحاريب الجدرانية.

• **المآذن**.. يذكر في عداد العناصر الجديدة أو المتطورة المئذنة الملوية التي ظهرت في (٣) مساجد كبيرة: اثنان منها في سامراء هما: (جامع سامراء)، و(جامع أبي دلف)، والثالث في مصر هو (جامع أحمد بن طولون)، ويقال إن هذا النوع من المآذن متأثر بهندسة الزيقورات التي تُشاهد في المعابد القديمة في العراق في عهد حضارتي بابل وآشور.

٢. **العناصر الزخرفية:**

أما عناصر الزخرفة التي استُخدمت لتزيين العمائر فأهمها النقوش الجصية، أو الرسوم الملونة على الجصّ الصقيل، والخشب المزخرف بالنقوش أو بالأصبغة.

• **مواضيع الزخرفة**.. اقتصرت على الأشكال الهندسية والنباتية التي لاحظ فيها دارسو الفنون (٣) طُرُز تطورت بين نشأة سامراء وأواخر أيامها، وتتميز من بعضها من حيث: أشكال الأوراق والعروق النباتية، واستخدام الأرضيات، وطريقة الحفر، ودقة التنفيذ[١٩٥].

• **التصوير**.. استُخدم في القصور، فقد عُثر في بعض قاعات الجوسق الخاقاني في قصر (المعتصم) على صور بالألوان للإنسان والحيوان والطير في مشاهد صيد ورقص وشراب وموسيقا[١٩٦].

• **مواد البناء**.. ولا يخفى ما لمواد البناء من تأثير في توجيه المعماري، وجعله يختار العناصر الإنشائية والأساليب المعمارية والزخرفية المناسبة لها، والمتلائمة معها، فمن متغيرات هذا العصر مواد البناء التي أصبحت من اللّبن والآجر كمادة رئيسة اعتُمد عليها بدلاً من الحجر، ومن المعروف أن العراق وأجزاء كبيرة من إيران وبلاد ما وراء النهر (التركستان وأفغانستان)، كانت تعتمد منذ القدم اعتماداً كبيراً على اللّبن والآجر؛ لعدم توفر المقالع الحجرية الصالحة للبناء، وهما من دون شكّ أقل قوة ومقاومة من الحجر، كما أنهما لا يُعطيان العمائر المظهرَ الجذاب؛ لذا كان لا يُستغنى عن تغطيتهما بطبقة من الجصّ القابل للزخرفة والنقش، وهكذا غدا الآجر وكسوته من النقوش الجصّية سمة من سمات العصر، وجزءاً لا يتجزأ من خصائص العمارة العباسية، لا في العراق فحسب، بل انتشر في أكثر بلدان العالم الإسلامي[١٩٧].

ثالثاً.. النشاط العمراني في العصر العباسي:

✱ **عمارة المدن:**

١. **مدينة بغداد:**

ذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان كيف اختار الخليفة أبو جعفر المنصور موقع مدينة بغداد فقال "في بناء عمارة بغداد كان أول من مصرها وجعلها مدينة الخليفة المنصور بالله أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ثاني الخلفاء العباسيين، وانتقل إليها من الهاشمية وهي مدينة كان قد اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة وشرع في عمارتها سنة /١٤٥هـ/ ونزلها عام /١٤٧هـ/ وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك من فعلهم فانتقل عنهم يرتاد موضعا بنى فيه مدينة، ويكون الموضع واسطا رافقا بالعامة والجند، فنعت له موضع قريب وذكر له طيب هوائه فقال لجماعة منهم سليمان بن مجالد وأبو أيوب المرزباني وعبد الملك بن حميد الكاتب: ما رأيكم في هذا الموضوع؟ قالوا: طيب موافق فقال: صدقتم لكن لا مرفق فيه للرعية وقد مررت في طريقي بموضع تجلب إليه الميرة والامتعة في البر والبحر وأنا راجع إليه وبائت فيه فإن

١٩٥- الكيلاني، (نورة)، وشابوتو، (منيرة)، العباسيون، الدولة الإسلامية الأولى في اكتشف الفن الإسلامي في حوض المتوسط، كتاب صادر عن متحف بلا حدود، دار الفكر، دمشق،/٢٠٠٧/، ص/٥٩، ٧٨/.

١٩٦- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٩٤/.

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/٨٣، ٨٤/.

١٩٧- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٩٥/.

المداخل بغرف بلغ عددها في كل مدخل مائة وثماني غرف منها مائة للجند، حيث تتسع كل غرفة لعشرة جنود وبذلك يكون عدد الجنود في كل مدخل ألف، أما الغرف الثماني الباقية فخصصت للقادة.

أما قلب المدينة[٢٠٥] الذي اشتمل على الدواوين، وقصر الخلافة الذي عرف بقصر الذهب واشتهر بقبته الخضراء، والمسجد الجامع فكان محاطا بسور داخلي مركزي يعد الخط النهائي لحماية مركز السلطة داخل المدينة.

ولقد خططت مدينة بغداد تخطيطا يكفل الأمن للخليفة في وقت الخطر ويسهل التوصل إليه في وقت الأمان، وأثر ذلك تأثيرا واضحا في تخطيط المدينة بصفة عامة وشوارعها وطرقها على وجه الخصوص كما أن السكك الفرعية التي تصب في كل منهما كان لها دروب يحكم غلقها لتزيد المدينة تأمينا كذلك فإنه يوجد بالمدينة نفق عمل للخليفة المنصور وذكر أنه أنشئ لكي يمكنه من الخروج من بغداد عند حصارها وينتهي بالخليفة إلى بعد فرسخين منها[٢٠٦].

مساحة بغداد: اختلف المؤرخون في تحديد مساحة بغداد فحسب إحدى الروايات فإن المساحة تقدر بـ (٧,٥كم) وحسب رواية اسحق الأزدي يمكن حساب مساحة المدينة بحوالي (٤,٥كم) وحسب رواية كل من الخطيب البغدادي وابن الجوزي وياقوت الحموي فإن قطر المدينة يبلغ (٢٦٣٨م) ومحيطها (١٦٠٠٠م)[٢٠٧].

وهكذا نجد في المدينة تنظيماً مدهشاً وتخطيطاً محكماً للأبواب والمداخل وتناسباً دقيقاً في توزيع الأسوار والشوارع والأحياء السكنية.

واتسعت بغداد بعد المنصور، وأضيفت إليها فيما بعد ضاحيتان هما الكرخ والرصافة، وعاشت عدة قرون، وغدت من أكبر وأجمل عواصم العالم الإسلامي، وأكبر مركز حضاري في العالم وقتئذ، وقبل أن يدمرها المغول عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

٢. آثار مدينة الرافقة (الرقة):

مدينة أخرى يرجع الفضل في إقامتها إلى الخليفة أبي جعفر المنصور، وهي الرافقة الواقعة عند مدينة الرقة على ضفة الفرات اليسرى، كان ذلك عام /١٥٥هـ/٧٧٢م/، ولم تكن مدورة كبغداد، بل تشبه حدوة الفرس، وقطرها لا يتجاوز (١٥٠٠م)، وأهم شيء نراه فيها اليوم بقية من السور، وباب فخم يُطلق عليه (باب بغداد)، وهو الباب الوحيد الذي ما يزال قائماً في السور، وكانت الأسوار كما وصفها (المقدسي) بقوله: (يسير على متنها فارسان)[٢٠٨]، يبلغ سمكها (٥,٨٥ م)، وهي مبنية باللبن، ومصفحة

---

٢٠٥ – عثمان، المدينة الإسلامية ، ص/١٤٢/.

٢٠٦ – المرجع السابق نفسه، ص/١٥٧/.

٢٠٧ – يوسف، (شريف)، تاريخ فن العمارة العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد، /١٩٨٢/، ص/٢٧٢-٢٧٧/.

٢٠٨– المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، جـ٢، ص/١٣١/.

بالآجر، وفي الأسفل مدماكان من الحجر المنحوت، ومزودة بالأبراج الدائرية، كذلك لم يبق من المباني سوى آثار مسجدها الجامع، وما عثر عليه المنقبون من آثار القصور العباسية خارج أسوار المدينة وداخلها٢٠٩.

• **السور والأبواب..** ذكر الطبري أن الرقة بُنيت على نمط بغداد من حيث البوابات والفاصل والرحبات والشوارع٢١٠. ورغم ذلك ليست المدينة مستديرة؛ لأن الجانب الجنوبي مستقيم، وبقية الجدران تُشكّل حدوة حصان مستدقة ومشوهة قليلاً.

وفي الوقت الحاضر تبعد الرقة حوالي (١كم) عن الفرات الذي كان على ما يبدو يغسل جانبها الجنوبي، ويبلغ طولها حوالي (١٥٠٠م) من الشرق إلى الغرب، وكذلك من الشمال إلى الجنوب.

كانت الجدران مزدوجة كجدران بغداد، وبقايا الجدار الداخلي ما زالت في حالة جيدة في الغرب والشمال، وأقل جودة في الشرق، وهناك بضع مئات منه في الجنوب من الجهة الشرقية، وهذا الجدار الذي يبلغ ارتفاعه (١٠م) في بعض أجزائه الشمالية الغربية، محاط بأبراج دائرية صغيرة على مسافة (٣٥م).

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية بقايا برج دائري عظيم يبلغ نصف قطره حوالي (٧,٨ م)، ويبدو أنه كان أصم، وارتفاعه من (٧ – ٨ م)، يتألف من مركز من الآجر الطيني، وطبقة خارجية من الآجر المشوي، يبلغ سمكها (٢–٣ م) في الأعلى، وتبلغ مساحة الآجر المشوي من (٢٤–٢٦سم٢)، وسُمكه من (١١–١٢سم).

وبفضل الخنادق التي حفرها (شلومبرغر) من دائرة الآثار في تموز /١٩٣٣ م/، وُجد أن ثخانة الجدار الداخلي (٥,٨٥ م) بالضبط، والفاصل (٢٠,٨م)، وثخانة الجدار الخارجي حوالي (٤,٥م).

أما الخندق فعرضه (١٥,٩م) في الأعلى، ويتناقص إلى (٩,٥م) في القاعدة، وترتكز الجدران مباشرة على التربة الصخرية، ويتألف المدماكان السفليان من الجدار الرئيس من حجر طباشيري أبيض يشبه الجصّ، ويبلغ ارتفاع كل مدماك (٦٥سم)، ويبدو أن الجدار المؤلف من الآجر الطيني لم يكن مغطّى بطبقة من الآجر المشوي مثل الأبراج المغطاة بالآجر المشوي بسماكة (٥٥سم)[٢١١]. الشكل(٣١)

• **باب بغداد..** يتمتع بأهمية خاصة؛ لكونه يحتفظ بأقدم العناصر المعمارية العباسية بعد زوال بغداد المنصور، ويلفت الانتباه بوقوعه في زاوية السور، وهي الزاوية الجنوبية الشرقية، خلافاً لبوابات المدن الأخرى، ولا نعرف اليوم باباً آخر للمدينة سوى أن (المقدسي) أشار إلى باب آخر يُدعى (باب الرها)،

٢٠٩- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/١١٨/.

الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/٨٨/.

٢١٠- الطبري، (أبي جعفر محمد بن جرير ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، **تاريخ الطبري**، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٤، ص/٥٠٦– ٤٠٧/.

٢١١- كريزويل، **الآثار الإسلامية الأولى**، ص/٢٤٦/.

ويقع في الزاوية المقابلة، أي الشمالية الغربية[٢١٢]. وتُنسب بعض المصادر بناء باب الرهـا إلـى الخليفـة هارون الرشيد الذي عُرف عنه أنه أقام في الرقة عام /١٨٠هـ/٧٩٦م/[٢١٣].

أُقيم باب بغداد في برج مستطيل بقي قسم مهم منه، وأبعاد هذا البرج (١٨×١٤,٥م)، وفي جداره الشرقي فُتحت قنطرة الباب التي تبلغ سعتها (٣,١٩م٢)، وتتألف من عقدين متراكبين لهما شـكل القـوس الذي يُسمى (العباسي) الذي يُرسم من (٤) مراكز، ووراء الباب دهليز أو غرفة طولها (١٢م) مسقوفة بقبة متقاطعة في الوسط وقبتين طوليتين على جانبيها، وتزدان واجهة البرج التي ترتفـع حاليـاً إلـى (١١م) بمحرابين كبيرين على جانبي الباب زال أحدهما وبقي الآخر، وهو مسقوف بعقدين كبيرين متراكبين مـن النوع العباسي، وتملأ بَاطنه تشكيلات هندسية من الآجر، وفي أعلى الواجهة سلسلة من المحاريـب يبلـغ عددها (١١) محراباً بقي منها (٨) لأن محور الحنية السادسة يتوافق مع محور مدخل البوابة، فهذا يعنـي وجود (١١) منها بالأصل، وهذه المحاريب ذات عقود مفصصة (خماسية الفصوص) تعتمد على أنصاف أعمدة ملصقة بالجدار. وقد تبين أن مدخل البوابة هذا هو الوحيد في الجدار الخارجي، وهو مـن نمـوذج المدخل المنكسر[٢١٤]. الشكل(٣٢)

• **المسجد الجامع**.. أُقيم في القطاع الشمالي من المدينة، وتبلغ أبعاده (١٠٨×٩٢م)، وهو مهـدوم، بقيـت منه المئذنة وواجهة الحرم المؤلفة من (١١) قنطرة، وترجع إلى أعمال التجديد التـي جـرت فـي عهـد السلطان نور الدين محمود عام /٥٦١هـ/١١٦٥م/.

وقد أظهرت الدراسات مخطط الجامع العباسي وبعض عناصره. ورأى كريزويل أن هندسته كانت مزيجاً بين العمارة السورية والعمارة الرافدية، فقد:

أخذت من جامع دمشق الأموي: تخطيط الحرم بثلاث بلاطاته الموازية جدارَ القبلة، والسقوف الجملونيـة. وأخذت من العراق: مادة البناء، أي الآجر، والأروقة المزدوجة ذات الصفين من الأعمدة، والسور المزوّد بالأبراج الدائرية، وتعدّد الأبواب[٢١٥]. الشكل(٣٣)

٢١٢- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، جـ١، ص/١٣٢/.

٢١٣- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج١، ص/٢٤٥- ٢٤٦/.

الريحاوي، (عبد القادر)، حضارة الجزيرة والفرات في العهد العربي الإسلامي، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشـق، /١٩٦٩/، المجلد١٩، ص/٤٩- ٧٦/.

٢١٤- كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ص/٢٤٩/.

٢١٥- المرجع السابق نفسه، ص/٢٥٢- ٢٥٤/.

الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/١٢٠/.

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/٩١/.

Blair, Sheila y Bloom,Jonathan: **Los abasies y sus sucesores en El islam Arte y Arquitectura** Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona,/2001/, pp/101,124/.

الفصل الخامس

العمارة الإسلامية في العصر السلجوقي

أولاً.. تمهيد تاريخي:

استمرت الحضارة العربية الإسلامية في مسيرتها على الصعيد الحضاري في العصر السلجوقي ٤٢٩-٧٠٧هـ/١٠٣٨-١٣٠٧م، وبقيت اللغة العربية لغة الدين والعلم والثقافة، وعلى أيّ حال كانت الروح الحضارية واحدة في مناطق واسعة من العالم الإسلامي ضمن العراق والشام والحجاز وآسيا الصغرى وأرمينيا وأذربيجان وأفغانستان والتركستان، ورعى السلاجقة الأوائل ولا سيما الوزير (نظام الملك) حركة العلوم والفنون والإعمار، وانتقل اهتمامهم بمظاهر الحضارة إلى حُكّام الأقاليم من السلاجقة والأتابكة، وعمل كل منهم ضمن حدود أملاكه على: رعاية العلوم، وإقامة المدارس، وإعمار المدن، فانتشرت العمائر في كل مكان، وعلى الرغم من التجزئة وتعدّد الدويلات فإنه ازدهر عدد كبير من المدن والعواصم واصبحوا مراكزَ حضاريةً، اهمها: بغداد، والموصل، ودمشق، وحلب، وقونيا، وأرضروم، ودنيسير، وأصفهان، والري، ونيسابور، ومرو، وبخارى، وسمرقند، وغيرها.

ومن خلال الحركة العمرانية تظهر المدرسة مؤسسةً ثقافيةً ومعماريةً، وينتشر بناء المدارس في كل المدن؛ اقتداء بالمدرسة النظامية التي وضع أسسها (نظام الملك)؛ إذ شُيّدت أولى المدارس الإسلامية في عهد وزارته بعد أن كان التعليم يجري في حلقات المساجد.

وانتشر كذلك بناء البيمارستانات، كمستشفياتٍ ومدارسَ لتعليم الطب، التي لا تكاد تخلو منها مدينة من المدن. وشُيّد كثير من الخانات كمحطاتٍ على طريق القوافل التجارية، أو في المدن كأسواق لتنشيط الحركة التجارية.

وظهر نوع من العمائر لأول مرة في المدن هو الخانقاهات، مفردها (خانقاه) أو (خانقة)[٢٦٩]، ويبدو من وظيفتها أنها بيوت للصوفية وأبناء السبيل، كالرباطات والتكايا. هذا فضلاً عن المساجد والتربة والحمامات التي يُشاهد كثير منها.

ولكن يُلاحظ من استعراض هذه العمائر ندرة القصور، وهي ظاهرة تُثير تساؤلاً، هل كان زعماء السلاجقة أقل اهتماماً ممن سبقهم بتشييد القصور الفخمة، أم إن قُربَ عَهْدِهِم من حياة البداوة، وميلهم إلى الزهد والاهتمام بأمور الدين، جعلهم يهتمون ببناء المدارس والمساجد أكثر من اهتمامهم ببناء القصور[٢٧٠]

---

[٢٦٩] – خانقاه، لفظة فارسية وتتألف من لفظتين، خان وتعني بيتوكاه، ظرفية مجازية، وتعني بيت العبادة.

270- Chmelnizkij,Sergej y Blair,Sheila y Bloom,Jonathan. **Ascenso y grandeza del imperio selyucida** en El islam Arte y Arquitectura Editor por Hattstein,Markus y Delius,Peter. Edicion espanola, Barcelona,2001, pp/346, 354/.

والواقع أن شيئاً بديلاً للقصور بدأ يظهر في المدن، هو القلاع؛ إذ يُلاحظ من حياة سلاجقة الشام ومن بعدهم نور الدين محمود، اهتمامهم الخاص بتجديد أسوار المدن وبناء الحصون والقلاع؛ بسبب حالة الحرب والجهاد ضد الصليبيين في المنطقة، ويبدو أن القلاع في المدن غدت المقرّ الرسمي للحاكم، فهي أقرب إلى ثكنة عسكرية منها إلى قصر منيف، ويتفق هذا مع روح الجهاد والتمسّك بشعائر الدين والزهد، وهي من الصفات التي اتصف بها نور الدين محمود الذي يمثل إلى حدّ ما روح العصر واتجاهات الزعماء الأتراك وقتئذ[٢٧١]. الشكل(٦٢،٦٣)

ثانياً.. الاتجاهات الجديدة في العمارة وفنونها:

حدث تطور ملحوظ في هذا العصر على فنون العمارة؛ إذ ظهرت عناصر جديدة في مجال التخطيط والإنشاء والزخرفة، مما أعطى العمائر مظهراً مختلفاً، وهذا يدعو إلى عدّ عمائر هذا العصر منتمية إلى ما تُمكن تسميته (مدرسة فنية جديدة) من مدارس الفن التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية، ولم تكن فنون هذه المدرسة محصورة في الأقاليم التي نشأ فيها السلاجقة في التركستان وإيران، بل انتشرت في سائر أنحاء البلاد التي سيطروا عليها، ومن ثم تسربت المبتكرات الجديدة كالمقرنصات مثلاً ، إلى ما وراء الحدود، وظهرت في عمائر مصر الفاطمية والمغرب.

ومع ذلك لا توجد عمائر العصر السلجوقي ذات لون واحد في الأقاليم كلها؛ إذ لا بدّ من أن تؤدي التقاليد المحلية، واختلاف المناخ، ونوعية مواد البناء، إلى ظهور فروق بين العمائر من إقليم إلى آخر، وسيبدو ذلك واضحاً في عمائر الأناضول وسوريا التي تختلف عن عمائر إيران والتركستان والعراق، على أن بينها جميعاً خطوطاً عامة مشتركة سيتم شرحها فيما يأتي:

١. تطوّر تصميم العمائر:

• تطوّر الإيوان.. أصبح الإيوان عنصراً أساسياً في تخطيط مباني المساجد والمدارس والبيمارستانات والمنازل وغيرها، ويمكن تعريف الإيوان ببساطة بأنه قاعة، أو غرفة، ذات (٣) جدران؛ لأن الجدار الرابع مفتوح كلياً نحو الفناء، أو الصحن، وغالباً ما تكون الإيوانات عديدة، وقد تكون (٤) موزعة على الجهات الأربع، وعلى محاور متعامدة، وهو ما أُطلق عليه (التخطيط المتصالب)، وقد ينفتح الإيوان على قاعة خلفية مسقوفة بقبة، كما يُشاهد في الجوامع المشيدة في إيران، ولا سيما في إيوان القبلة (قاعة الصلاة)، وفي عمائر أخرى منها رباط شرف، وغالباً ما توجد الأروقة مع الإيوانات محيطة بالصحن، أو ببعضه. حيث يرى أسلانابا أن هذا التخطيط مقتبس على الأغلب من عمائر الغزنويين، ويجب الإشارة أن هذا النوع من التخطيط أقل ملائمة لصلاة الجماعة من تخطيط المساجد الأولى ذات البلاطات. ولعل

٢٧١- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/١٦٢، ١٦٣/.

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/٩٩/.

السبب في الإعتماد على الإيوان والقبة في قاعة الصلاة هو اقتطاع مكان خاص منها ليكون كمقصورة خاصة بالسلطان. بينما يبقى الجناحان الممتدان على جانبي القبة والإيوان للعامة.[٢٧٢]

• الصحن.. استمرّ وجود البركة في وسطه عنصرًا أساسياً أيضاً، وهي مربعة الشكل أو مستطيلة عامة، ذات حنايا في أركانها، ويلاحظ أن الصحن صغر حجمه في معظم المباني، وظهر الصحن المسقوف في المناطق ذوات الشتاء البارد، ولاسيما في الأناضول.

• التُرب أو الأضرحة.. زاد الاهتمام بإنشاء الترب، أو الأضرحة، مستقلة أو ملحقة بالمباني الدينية، كالمساجد والمدارس؛ وذلك لتخليد اسم بانيها.

٢. العناصر المعمارية:

• الأقباء.. كان التسقيف يعتمد عليها، ولاسيما منها القبوة نصف الأسطوانية والمتقاطعة، وكانت تُقام بالآجر، أو بالحجر المنحوت، أو بالحجر الدبش المغموس بالمونة.

• القباب.. استُخدمت إلى جانب الأقباء، ولاسيما في تسقيف الترب، وقد تنوعت أشكالها، فكان من بينها قباب هرمية ومخروطية وذوات طبقات مدرجة أو مقرنصة السطح، كالتي ظهرت في العراق والشام.

• المآذن.. تنوّعت أشكالها الأسطوانية، أو المائلة إلى الشكل المخروطي، أو المضلعة على شكل مجموعة من أنصاف الأعمدة، بينما استمر الشكل المربع معمولاً به في بلاد الشام.

• المقرنصات.. عنصر إنشائي حلّ محلّ الحنية الركنية في زوايا الانتقال في القبة، ثم أصبح عنصراً زخرفياً يغطي القبة أو عقود المحاريب، أو يحمل شرفات المآذن؛ ولتكوين الأفاريز، ويبدو أن المقرنص تولّد عن الحنية التي تُشبه المحراب بعد تجزئتها إلى مجموعة من المحاريب الصغيرة على طبقات عدة، ويُرجّح أن أول استعمال لها كان في جامع يزد في إيران بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ إذ تتحول الحنية الركنية إلى حنية ثلاثية المحاريب، ثم يظهر هذا العنصر في تربة أرب أتا في تركستان منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ثم يتطور شكل المقرنصات، وتغدو محاريب وأنصاف محاريب متراكبة، وتتعدد أشكالها، ويشيع استعمالها في أنحاء العالم الإسلامي.

٣. العناصر الزخرفية:

كانت المباني المشيدة بالحجر المنحوت في الأناضول وسوريا تزخر بالنقوش التي تمثل العروق النباتية والأشكال الهندسية والكتابات. ويظهر في مباني الحجر تناوب الألوان في المداميك، وفي العقود والسواكف، وفي الحليات الزخرفية المكونة من خطوط أو أقواس متداخلة.

أما عمائر الآجر فقد كان الاعتماد في زخرفتها على تشكيلات الآجر التي تطورت وبلغت مستوى رائعاً في التعبير عن الزخارف الهندسية التي تتخللها أحياناً الكتابة بالخط الكوفي أو بالثلث. كما ظهر في عمائر الآجر عنصر زخرفي جديد هو الخزف الذي أخذت تُرصّع به مباني الآجر، وكان من لون وحيد هو الفيروزي (التركواز)، وسيصبح الخزف في العصور اللاحقة أكثر استعمالاً وتتعدد ألوانه

272 _ O. Aslanapam Turkish art, p.690.

وأشكاله. واستمر استخدام النقوش الجصية التي توجد في الجدران الداخلية، ولا سيما جدران الآجر. وشاع في النحت تمثيل الكائنات الحية كما هي الحال في جسر عين ديوار في الجزيرة السورية. إضافة إلى المقرنصات التي غدت من العناصر الزخرفية، وتُستعمل سواء في مباني الآجر والحجر[٢٧٣].

ثالثاً..النشاط العمراني في العصر السلجوقي:

في هذا العصر يوجد مجموعة مهمة من العمائر ما تزال باقية في مناطق واسعة من العالم الإسلامي ومن أهمها:

١. المسجد الجامع أصفهان:

يمثل جامع أصفهان الكبير أو المسجد الجامع الموجود حالياً عدة مراحل: أولها عباسية من حوالي القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد وكان يشبه في تخطيطه جامع سامراء فشكله يمتد من الشمال إلى الجنوب وفيه صحن واسع. وهو مشيد بالآجر.

أما الحرم فكان مؤلفاً من (١٨) صفاً من الأعمدة الموازية للقبلة في كل صف (٧) أعمدة يقابلها في الرواق الشمالي المماثل للحرم (٥) أعمدة بينما يتكون الرواقان الشرقي والغربي من ثلاثة صفوف على امتدادهما. وكان السقف مستوياً ويعتمد مباشرة على الأعمدة. أجريت على الجامع تعديلات هامة في العصر السلجوقي تمثل الاتجاهات الجديدة. وهي ما تزال ظاهرة في المسجد الحالي وتتألف العناصر السلجوقية من قبة كبيرة من الآجر قطرها (١٥م) قائمة فوق تسع قناطر مختلفة المقياس محمولة على عضائد ضخمة ذوات مقطع مفصص مكون من أنصاف أعمدة. شيدت هذه القبة أمام المحراب كمقصورة للسلطان في عهد السلطان ملكشاه حوالي عام/٤٦٨هـ/١٠٧٥م/.

ثم أنشئت قبة أخرى وراء الجدار الشمالي حوالي عام/٤٨١هـ/١٠٨٨م/ لتكون مصلى ل تركان خاتون زوج السلطان ملكشاه. وقد بنيت القباب دون كسوة جصية حيث اعتمد في تزيينها على تشكيلات الآجر. وتشاهد في زوايا الانتقال الحنايا الركنية وهي ثلاثية الفصوص كما تشاهد المحاريب المسطحة المزودة بأنصاف الأعمدة تزين جدران القبة. الشكل(٦٤)

وجدد السلاجقة أنحاء من المسجد في إثر الحريق الذي ألم به عام/٥٠٥هـ/١١١٢م/ فاستبدلوا بالسقف الخشبي أقباء من الآجر. وكذلك أضيفت البوابة الشمالية ذات المئذنتين على جانبيها. على أن الشيء الهام في هذا التجديد هو إحداث الأواوين الأربعة على الصحن التي تمثل أقدم الأمثلة، وقد توالت على المسجد الإصلاحات وأعمال التوسيع والزيادات والزخارف فيما بعد معظمها من عهد دول التتار والصفويين.[٢٧٤] الشكل(٦٥)

٢٧٣- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/١٦٤، ١٦٥/.

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/١٠٠، ١٠١/.

٢٧٤- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/١٦٨/.

يقع إثنان من الأواوين خلف البوابتين. أما الجناح الداخلي فيماثل الأول في التصميم، لكنه أكبر حجماً، وفناؤه مربع الشكل. ويلاحظ وجود قباب تغطي بعض القاعات، كالتي تقع خلف الأواوين وفي الأركان. تتميز واجهة الإيوان الداخلي بزخارفها الجصية، وبالكتابة الكوفية المزخرفة، وبالمحاريب المزاعة في الجوانب.[٢٧٨] الشكل(٦٧)

٥. البيمارستان النوري:

أُنشئ في دمشق في عهد السلطان نور الدين محمود عام /٥٤٩هـ/١١٤٥م/، ثم وسّعه الطبيب بدر الدين ابن قاضي بعلبك عام/٦٣٧هـ/١٢٣٨م/[٢٧٩]، ثم قام بترميمه الملك الظاهر بيبرس، ثم السلطان قلاون وابنه الناصر محمد، وآخر ترميم طرأ عليه كان عام /١٩٧٨م/، وبعد ذلك أصبح مقراً لمتحف الطب والعلوم عند العرب[٢٨٠].

كما شيّد السلطان نور الدين محمود بيمارستاناً آخر في حلب، وثالثاً في حماة، ولكن بيمارستان دمشق أكثرها شهرة وأهمية؛ لكونه ما زال في حال أفضل، شيّده نور الدين ليكون مشفى ومدرسة للطب، وظل كذلك في العصور كلها، حتى مطلع القرن العشرين الميلادي.

قال أبو شامة: " إن نور الدين وقع في أسره بعض أكابر ملوك الفرنج، فأخذ أموال الفداء، وبنى بها البيمارستان، على الرغم من معارضة الأمراء"[٢٨١]، ولعل كثرة الحملات الصليبية دعت نور الدين إلى بناء البيمارستانات؛ لمداواة الجنود في مقرّ رسمي، إضافة إلى البيمارستانات المتنقلة.

وقد زار البيمارستانَ الرحّالةُ ابن جبير في أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ووصفه، وتحدث بإعجاب عما يجري فيه من أنواع العلاج والجراحات، وذكر أن فيه جناحاً للأمراض العقلية، وقال إنه مفخر عظيم من مفاخر الإسلام.[٢٨٢]

جرت توسعة البيمارستان عام /٦٣٧هـ/١٢٣٨م/، وأُضيفت إليه دورٌ كانت حوله؛ ليتسع لعدد أكبر من المرضى.

يتألف المبنى الأصلي من فناء أبعاده (٢٠×١٥م)، تتوسطه بركة ماء مستطيلة أبعادها ٨,٥×٧م، في أركانها من الداخل حنايا نصف أسطوانية، كأكثر الأحواض المشيدة في ذلك العصر، وهي مبنية بالحجر المنحوت[٢٨٣].

---

٢٧٨ – الريحاوي، **المرجع السابق**، ص/١٧٨/.

٢٧٩- ابن أبي أصيبعة،(أحمد بن القاسم /٦٦٨هـ – ١٢٧٠م/)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج٢، ص/٢٥٩/.

٢٨٠- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج٢، ص/٥٦٧/.

٢٨١- شهاب الدين المقدسي أبو شامة /٦٦٥هـ – ١٢٤٨م/، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق عزة العطار، مطبعة وادي النيل، القاهرة،/١٩٤٧/، ج١، ص/٩/.

٢٨٢- ابن جبير، الرحلة، ص/٢٩٩/.

وتُحيط بالفناء السماوي (٤) إيوانات متقابلة، و(٤) قاعات رئيسة موزعة في أركان البناء، لها أبواب على الصحن. وهذه القاعات بعضها مربع وبعضها مستطيل، وكلها مسقوفة بالعقود المتقاطعة. وللمبنى مدخل مهم يبدأ بباب مفتوح في الواجهة الغربية، وله مصراعان من الخشب، مصفحان بالنحاس، ومزخرفان بالمسامير النحاسية الموزعة على أشكال هندسية، كُتب بها من الأعلى سطر بالخط النسخي، وعلى كل من المصراعين مطرقة نحاسية جميلة، والمصراعان مزخرفان من الخلف بالحشوات الخشبية المنقوشة بالزخارف النباتية، وللباب ساكف مؤلف من حجر واحد منقول من بناء قديم يرجع إلى العصر الروماني، ويعلو الباب واجهة من الزخارف الجصية من عهد نور الدين، تتألف من صف من المحاريب ذات الأقواس المفصصة، وهذه الزخارف متأثرة بزخارف قصر الحير الغربي، وتعلو أقواس المحاريب مقرنصات دقيقة الصنع تنتهي في الأعلى بالصدفة، وهو مفتوح ضمن دخلة قليلة العمق (إيوان) معقودة بالمقرنصات تؤدي إلى دهليز (دركاه)، يقع بين البابين الخارجي والداخلي، ويتكون من قاعة مربعة مسقوفة بقبة عالية تُغطّيها المقرنصات من الداخل والخارج، وهذه المقرنصات تجعلها مع قبة تربة نور الدين أنموذجاً فريداً في العمائر السورية، وعلى جانبي الدهليز الشمالي والجنوبي إيوانان صغيران معقودان بالمقرنصات، وينتهي الدهليز بالصحن مخترقاً واحداً من الإيوانات الأربعة هو الإيوان الغربي. الشكل(٦٨)

ويعتمد التسقيف على الأقباء، وهي طولية مدببة، أو متقاطعة، أما الدهليز فمسقوف بقبة من نوع جديد يظهر لأول مرة في الشام، تُشبه القباب المخروطية التي ظهرت في العراق، لها شكل مقرنص من الخارج إضافة إلى المقرنصات التي تزينها من الداخل، وعلى الكسوة الداخلية كتابة تؤرخ إصلاحات جرت في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون وابنه السلطان حسن عام /٧٤٩هـ/١٣٤٨م/، لعلها تتعلق بالزخارف الجصية الملونة[٢٨٤]. الشكل(٦٩)

عقود الإيوانات من الحجر المنحوت من النوع المدبب الذي يُرسم من مركزين، وأكبرها الشرقي، وكان مخصصاً، كما تحدثت الروايات التاريخية، لإلقاء المحاضرات ودروس الطب، أبعاده /٨×٧،٥م/، وفي جداره الشرقي خزانتان للكتب؛ وقد ذكر طبيب البيمارستان في عهد نور الدين (أبو المجد بن أبي الحكم) أنه كان يدور على المرضى، ثم يأتي، ويجلس في الإيوان الكبير، ويُحضر الكتب، ويُعدّ البحوث الطبية، ويُقابل التلاميذ[٢٨٥]، أما الإيوان الغربي ففي داخله زخارف من المقرنصات، وفي جداريه الجنوبي والشمالي بابان صغيران يؤديان إلى قاعتين مستطيلتين تُعدّان من القاعات الرئيسة في البيمارستان، ويعلو كلاً من البابين قوس مدبب من النوع المتجاور، ولكل من هاتين القاعتين باب آخر يُطلّ على الصحن، وهناك نوافذ فوق أبواب القاعات التي تُطلّ على الصحن، تقوم مقام العقد العاتق

٢٨٣- المنجد، (صلاح الدين)، **بيمارستان نور الدين**، دمشق، /١٩٤٦/، ص/٣٣/.

٢٨٤- الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/١١٠- ١١٢/.

٢٨٥- ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ج٢، ص/١٥٥/.

المخفف للحمل عن السواكف، فضلاً عن الإنارة، وهي معقودة بأقواس حجرية مدببة من النوع المماثل لعقود الإيوانات، وتُغطّيها شمسيات ذات زخارف هندسية، تمثل خيوطاً متداخلة وأشكالاً نجمية يُحيط بها إطار من الزخارف النباتية.

هناك زخارف أخرى متبقية في وزرة[٢٨٦] الإيوان الجنوبي، تتألف من الرخام الملون، يتخلله محراب مسطح نُقشت عليه عروق نباتية متقنة، ويعلوه قوس تتكون فقراته من الرخام الملون بالتناوب يستند على سويرتين حلزونيتين من الرخام، نُحتت عليه أقنية حلزونية، ويعلوهما تاجان من النوع الكورنثي المتطور[٢٨٧]، وتملأ زوايا المحراب الخارجية، بين عقد المحراب والمستطيل، حشوةٌ من الفسيفساء الرخامية من النوع المعروف بـ(المشقف)، وتُعدّ استخداماً مبكراً لهذا النوع من الفسيفساء في العمارة العربية الإسلامية، ثم تنتهي الوزرة في أعلاها بشريط من الحجر السماقي المُلون والمنقوش بالزخارف، نُقشت عليه كتابة تُورخ البناء، فُقِدَ معظمها، وبقي منها حجر يحمل زهرة الزنبق ضمن دائرة، وهي التي تمثل شعار نور الدين[٢٨٨].

وأخيراً لا بدّ من ذكر ما قاله العلاّمة عبد القادر بدران عن البيمارستان، قال: "كان ينام فيه المرضى إلى قرب الثلاث مئة بعد الألف، إلى أن عمرت الحكومة مستشفى الغرباء بمحلة البرامكة"[٢٨٩].

٦. المدرسة النورية:

شيّد السلاجقة عدداً من المدارس في دمشق وحلب، اندثر أكثرها، وتعدّ المدرسة التي أنشأها الملك العادل نور الدين حوالي عام /٥٦٣هـ/١١٦٧م/ في دمشق ضمن أسوارها، من أهم آثار العمائر الباقية منذ هذا العهد، وهي تضمّ قَبْرَهُ؛ إذ تُوفي سنة /٥٦٩هـ/١١٧٤م/[٢٩٠].

وما تزال المدرسة في حال جيدة، باستثناء إيوانها الشمالي الذي اقتُطع منها؛ لتوسعة الطريق المجاور لها، بوابتها مفتوحة على سوق الخياطين، يليها دهليز ينتهي بصحن المدرسة الذي تتوسّطه بركة ماء مماثلة للتي في البيمارستان، وتُطل عليه (٣) إيوانات، بينما يحتل الجهة الجنوبية الحرم المستطيل الشكل المفتوح على الصحن بـ(٣) أبواب، أوسطها كبير، وفي الركن الجنوبي الشرقي على يسار البوابة تربةُ السلطان نور الدين التي تضمّ ضريحه، ويُدخل إليها من باب في دهليز المدرسة، وتضمّ المدرسة كذلك مجموعة من الغرف موزّعة على طابقين، يُصعد إلى الطابق العلوي من سُلّم يُدخل إليه من الدهليز أيضاً. الشكل(٧٠)

---

٢٨٦ – ما تكسى به الأقسام السفلية من الجدران.

٢٨٧- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٢٩٠-١٩١/.

٢٨٨- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج٢، ص/٥٦٧/.

٢٨٩- بدران، (عبد القادر /١٣٤٦هـ – ١٩٠٩م/)، **منادمة الأطلال**، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢،/١٩٨٥/، ج١، ص/٢٥٩/. أما المشفى فقد بني من قبل السلطان عبد الحميد الثاني.

٢٩٠- البهنسي، المرجع السابق ، ج٢، ص/٥٦٩/.

ويتجلى فنّ العمارة في قبة المدفن النادرة المثال؛ إذ تُعدّ من زمرة القباب المقرنصة من الخارج كالتي في بعض أضرحة العراق وفي البيمارستان النوري، وتُغطي المقرنصات كامل القبة من الداخل أيضاً، تتخللها النوافذ، ويُتوّجها في القمة قبة صغيرة مفصصة على هيئة الصدفة[٢٩١]. الشكل(٧١)

٧. مئذنة جامع حلب:

شيدت مئذنة جامع حلب في بداية العصر السلجوقي، أيام قسيم الدولة آقسنقر جدّ نور الدين الذي ولاّه ملكشاه على حلب عام /٤٨٢هـ/١٠٨٩م/، وهي مبنية من الحجر الجيد النحت على شكل برج مربع يرتفع (٣٤,٤٥م)، يقسمه إلى (٤) طبقات أفاريز بارزة، وتُزين الواجهات عقود مفصصة، وتتميز بزخارف واجهات بدنها، وتنتهي المئذنة في أعلاها بشرفة للأذان محمولة على مقرنصات، وتُتوّجها قبة صغيرة نصف كروية[٢٩٢]. الشكل(٧٢)

٨. مدرسة كمشتكين في بصرى:

تتصل المدرسة بمسجد قديم أُقيم على المكان التذكاري الذي اشتُهر باسم (مبرك الناقة)، أي ناقة الرسول ﷺ عند زيارته بصرى في رحلته إلى الشام، وهي ليست بعيدة عن دير (الراهب بحيرا) المذكور في هذه الرحلة[٢٩٣].

ويبدو أن حاكم بصرى الأمير كمشتكين شيّد هذه المدرسة عام /٥٣٠هـ/١١٣٦م/، وهي بناء صغير يتألف من صحن مربع مسقوف بقبة بقيت منها زوايا الانتقال، وهي هنا جسور حجرية تتدرج في الطول بين الزاوية وبين مسقط القبة، وهو أسلوب عُرف في العصر الروماني في الشام خاصة، وحول الصحن (٤) إيوانات، أكبرها في الجهة الجنوبية حيث قاعة للصلاة مزودة بمحراب، ولهذا الإيوان واجهة على الصحن ذات (٣) أبواب، ومثل ذلك في واجهة الإيوان المقابل، وسقوف الإيوانات مكونة من الربد، وهو ألواح حجرية كبيرة شاع استعمالها في المنطقة في العصور الماضية، وفي أطراف البناء (٦)غرف تنفتح أبوابها على الإيوانات، وللمدرسة أيضاً مئذنة مربعة الشكل[٢٩٤]. الشكل(٧٣)

٢٩١- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/١٩١ - ١٩٢/.

الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/١٠٢/.

٢٩٢- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج١، ص/٧١ - ٧٣/.

الشافعي، (فريد)، **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة/١٩٧٠/، ص/١٦٥/.

٢٩٣- الحمصي، (أحمد فائز)، **روائع العمارة الإسلامية في سوريا**، دمشق،/١٩٨٢/، ص/٧١/.

٢٩٤- الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/١٩٧/.

الفصل السادس

العمارة الإسلامية في العهد الأيوبي

• لمحة تاريخية :

ينتسب الأيوبيون إلى أسرة كردية جاءت من تكريت إلى بلاد الشام، في حاشية الأتابك عماد الدين زنكي (والد السلطان نور الدين) وقد ظهر منها صلاح الدين على مسرح الأحداث، قائداً صغيراً في جيش الشام الذي أرسله نور الدين لحماية مصر من الخطر الصليبي سنة ٥٦٤هـ-١١٦٨م، ثم أصبح مع عمه أسد الدين شيركوه من أبرز القادة ، ثم عين وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي والحاكم الفعلي في مصر، وعمد بعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧هـ-١١٧١م إلى إلغاء الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى الخلافة العباسية، وبعث أخاه توارنشاه سنة ٥٦٩ هـ-١١٧٣ م إلى اليمن فضمها إلى مصر، لكن صلاح الدين ظل يحكم مصر نائباً لنور الدين في دمشق، إلى أن توفي هذا الأخير سنة ٥٦٩هـ-١١٧٣م، فآلت إليه السلطة على مصر والشام وما يتبعهما من اليمن والحجاز والجزيرة الفراتية، وتابع صلاح الدين سياسة نور الدين بتحرير البلاد المحتلة من قبل الصليبيين حيث حرر القدس إثر معركة حطين سنة ٥٨٣هـ-١١٨٧م، وعمل على توحيد الأقطار والمناطق في الشام، وحولها في دولة قوية، وتابع كذلك مهمة الإعمار ونشر التعليم والثقافة، وكان يعترف وخلفاؤه من الناحية

الرسمية بالخلافة العباسية والسلطة السلجوقية، وغدت دولة الأيوبيين في عهد صلاح الدين وأخيه الملك العادل أبي بكر محمد، من أقوى دول العالم الإسلامي وقتئذٍ، ولكن الذي أضعف من إمكانات هذه الدولة، الصراع على السلطة، والخلاف القائم بين أولاد صلاح الدين أولاً ثم بين أولاد أخيه العادل أبي بكر، وأدى ذلك إلى تجزؤ الدولة وضعفها مع استمرار الحروب مع الصليبيين، وعاشت الدولة الأيوبية حتى عام ٦٥٨هـ-١٢٥٩م، السنة التي سقطت فيها بلاد الشام بأيدي المغول بقيادة هولاكو لغزو العالم، وكانت مصر قد خرجت من أيدي الأيوبيين قبل ذلك بعشر سنين، حيث اغتصب السلطة منهم مماليكهم من قادة الجيش، وحملة السلاح في أيام أولاد السلطان نجم الدين أيوب وزوجه شجر الدر، وبقي أحفاد عم صلاح الدين أسد الدين شيركوه، يحكمون حماة تحت سلطة المماليك حتى عام ٧٤٢هـ-١٣٤١م، وكان آخرهم الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل المشهور بأبي الفداء، مؤلف كتاب تاريخ أبي الفداء.

خصائص العمارة الأيوبية

بالرغم من حالة الحرب الدائرة مع العدو الفرنجي، والحملات الأوربية المتواصلة على فلسطين والمنطقة العربية، فقد شهدت البلاد العربية التي حكمها الأيوبيون نهضة عمت أكثر جوانب الحياة الحضارية، يرجع سببها كما يبدو إلى الاستقرار ورسوخ الوحدة بين الشام ومصر، يشهد على ذلك الحركة العمرانية التي عمت معظم المدن والازدهار الاقتصادي، والعناية بالمنشآت الدينية والمدارس والبيمارستانات والحمامات والقيساريات:

١- يغلب على العمائر الأيوبية طابع التقشف وعدم الإسراف في الزخرفة بسبب حالة الحرب.

٢- تميزت بالقوة واتقان التخطيط والبناء ودقة النسب وجودة العناصر المعمارية والزخرفية.

٣- كان الاعتماد على الحجر المنحوت مادة أساسية[١]، بينما استخدم الآجر في أماكن محدودة ولا سيما في القباب، ونجد الحجر مستخدماً بمقاييس كبيرة في الواجهات بشكل خاص وفي الأعمدة والتيجان، لذا فإن أكثر المباني أصبحت أضخم مما كانت عليه في العهد السلجوقي السابق، وأكثر جمالاً بواجهاتها وبواباتها.

٤- كان التسقيف في العمائر الأيوبية، يعتمد على القباب التي تلقت تطويراً ملحوظاً، وأصبح بعضها يقوم على رقبة من طبقتين من المضلعات، تزيد في ارتفاعها وشاع في القباب استعمال الطاسة المحززة، المكون سطحها من ضلوع محدبة، واستخدمت وسيلة للانتقال، الحنايا الركنية، والمثلثات الكروية، واستخدمت في التسقيف أيضاً الأقباء، التي أخذت أشكالاً متعددة منها الطولية والمتقاطعة، وكانت تبنى أحياناً بالحجر المنحوت.

٥- حصلت أبواب المباني على عناية خاصة، فغدت مفتوحة ضمن أواوين عالية فخمة معقودة بالمقرنصات غالباً، وكانت العقود يغلب عليها الشكل المدبب.

٦- ومن العناصر المعمارية التي تميزت بها العمائر الأيوبية، التيجان المقرنصة وهذا النوع من التيجان يظهر لأول مرة في العهد الأيوبي ولا سيما في عمائر بلاد الشام.

٧- أما عناصر الزخرفة، فنجد عدم الإسراف فيها ولكننا نجد أنها متقنة الصنعة رصينة في موضوعها، وتنحصر في بدايات المباني أو في المحاريب

---

(١) محمد : العمارة الإسلامية على مر العصور، ج40، ١، ص ٤١٥.

والمنابر، بينما (المقرنصات) التي استخدمت في وظيفتها الإنشائية والتزيينية، وكانت جيدة النحت، مصنوعة غالباً من الحجر، نجدها في عقد إيوان البوابات بشكل خاص وفي زوايا الانتقال في القباب وهناك عنصر (التلوين) وذلك باستخدام لونين بالتناوب، نجده في الأبواب وفي فقرات الانتقال في القباب، كما نجد حجارة السواكف، قد (عشقت) فيما بينها لأول مرة بشكل زخرفي، بحيث جعلت أطرافها المعشقة مقصقصة وهناك في الواجهات حليات منقوشة وكتابات بخط الثلث الجميل أو الكوفي المربع، أما في الداخل فنجد على الجدران (النقوش الجصية) [1]، بشكل محدود وفي بقاع صغيرة، أما النقوش (الخشبية) ونجدها في المنابر وتوابيت الأضرحة، وأحياناً في المحاريب (كمحراب المدرسة الحلوبة) الخشبي في حلب وهو الوحيد من نوعه في الشام، كذلك زودت بعض المباني بنوافذ ذوات شمسيات من الجص المعشق بالزجاج الملون.

أما ما يتعلق بخصائص العمارة العسكرية: فنلاحظ تطوراً ملحوظاً على فن التحصين، بسبب حالة الحرب، والحاجة إلى حماية المدن وإقامة الحصون المنيعة، ويمكننا اعتبار فن التحصين المتمثل في العمائر الأيوبية نهاية مراحل التطور حيث لم يظهر أي تجديد في العهود اللاحقة، فنحن نجد في عمائر الأيوبيين العسكرية نموذجاً لأرقى ما وصل إليه هذا الفن على المستوى العالمي، وليس ضمن نطاق الحضارة الإسلامية فحسب، وأحسن مثل على ذلك قلعتا دمشق وحلب.

---

(١) محمد: العمارة الإسلامية على مر العصور، ج١، ص ٤١٦.

فوقها قبة، ويوجد عدد من المحاريب بداخلها وخارجها، وهي محاريب بسيطة التكوين، ولها مدخل في جهتها الشمالية، وتستخدم اليوم كدار للقرآن الكريم[٣٨٥]. الشكل(٩٨)

خامسًا..العمارة الأيوبية في سوريا:

ازدهرت الحركة العمرانية في الشام لكن أكثرها كان في دمشق، واتسعت رقعتها خلال العصر الأيوبي، وظهرت فيها أحياء سكنية جديدة خارج الأسوار أكبرها محلة الصالحية التي أُقيمت على سفح جبل قاسيون الذي بُدئ بإعماره لإسكان المهاجرين من بيت المقدس وفلسطين، فغدت مدينة حقيقية تفصلها عن دمشق منطقة البساتين، وكذلك اكتظت المدينة بالعمائر من مساجد ومدارس وترب وبيمارستانات.

ويرجع السبب في هذا الازدهار الملحوظ إلى نزول الأيوبيين من أسرة السلطان (صلاح الدين) في دمشق؛ لسهولة المرابطة فيها، ولقُربها من خطوط المواجهة مع الصليبيين، ولا تزال أكثر المباني الأيوبية قائمة في حال جيدة تتميز بمظهرها الجادّ، وبواجهاتها الحجرية، وبقبابها المحمولة على رقبة من طبقتين من المضلعات، وبالمآذن المربعة الشكل، وفيما يأتي أهم هذه المنشآت[٣٨٦].

١. المدرسة العادلية:

مقرّ المجمع العلمي العربي في باب البريد في دمشق منذ عام /١٩١٩/، وما تزال[٣٨٧]، شُيّدت عام /٦١٢هـ/١٢١٥م/، في عهد الملك العادل (سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب) أخي (صلاح الدين الأصغر)، وأكملها ابنه (المعظم عيسى) عام/٦٢٠هـ/١٢٢٣م/[٣٨٨]. تُعدّ المدرسة من أهم عمائر العصر الأيوبي من حيث: التخطيط، ورصانة البناء، والعناصر المعمارية المتقنة الصنع، وقد طرأ عليها بعض التعديل؛ نتيجة أعمال الهدم والترميم، ولكن أقسامها وعناصرها المهمة ما تزال تحافظ على وضعها الأصيل.

للمدرسة باب يتوسط الواجهة الشرقية، يفضي إلى دهليز رَحْبٍ مسقوف بقبوة، يليه باب آخر على محور واحد مع الباب الخارجي مفتوح ضمن إيوان مرتفع مطلّ على صحن سماوي، وفي الجهة الجنوبية من الدهليز باب يؤدي إلى التُربة، وباب ثانٍ في الجهة الشمالية من الدهليز يؤدي إلى الطابق العلوي للمدرسة.

والصحن مربع الشكل تُحيط به من جهة الجنوب قاعة الصلاة، ومن جهة الشمال إيوان كبير، أما جهة الغرب فكانت تضم مجموعة من الغرف، لكنها جددت مؤخراً، وتشغل التربة الزاوية الجنوبية الشرقية من الصحن.

---

٣٨٥ – نجم، كنوز القدس، ص/١٣٩/.

٣٨٦- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٢٦١/.

٣٨٧- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/١٢٥/.

٣٨٨- البهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج٢، ص/٣٥٩/.

تتميز البوابة بهندستها الفريدة غير المألوفة في العمائر الأيوبية الأخرى، وتتألف من إيوان يرتفع بارتفاع الواجهة، مسقوف بعقد حجري يتوسطه حجر مدلّى كالمفتاح، يقسم عقد الإيوان إلى قوسين لكل منهما (٣) فصوص.

والإيوان مسقوف بقبتين متجاورتين من الحجارة المقرنصة، وفي صدر الإيوان الباب مستطيل الشكل، مؤلف من حجارة متناوبة بيضاء وسوداء، مزود بإطار مزخرف بالقولبات العديدة، وإطار ثان من الأسنان النافرة، وهذا الأخير شبيه بذاك المحيط بواجهة البوابة الخارجية، حيث يمتد داخل الإيوان حتى أسفل السقف المعقود، وإلى ما فوق ساكف الباب بقليل، ويعلو ساكف الباب حجرٌ تُغطّيه الزخارف الهندسية، ويعلوه الطراز، أي المكان المخصص لنقش الكتابة التاريخية، ويُحيط به إطار ذو قولبات نافرة. (الشكل ٨٨)

شيدت الواجهات الخارجية بالحجر الكلسي جيد النحت ارتفاع مداميكها قرابة (٦٠سم)، ينتهي في الأعلى بطنف (كورنيش) من الحجر المقولب، وهي خالية من الزخرفة، وفيها النوافذ المستطيلة الشكل، المزودة بشبك حديد، يعلو سواكفها عقد عاتق مخفف للثقل.

للمدرسة صحن سماوي مربع أبعاده (١٨×١٧م) مبلط بالحجر، وكان يتخلل البلاط لوحات ذات زخرفة هندسية ذات تركيب صخري شطرنجي[٣٨٩]، وفي وسطه بركة ماء مربعة طول ضلعها (٨,٥ م)، وفي زواياها حنايا نصف دائرية كأكثر برك العهد الأيوبي.

شيدت الواجهات الداخلية المطلة على الصحن من الحجارة الخالية من الزخارف، وفي جهة الشمال الإيوان الكبير، وعلى جانبيه بابان ينتهيان بقوس مدبب، ويعلو كلاً منهما نافذة مستطيلة، والبابان يؤديان إلى ملحقات المدرسة وغرفها، وفي جهة الجنوب قاعة الصلاة المستطيلة الشكل، كانت مسقوفة بـ (٣) قبوات متقاطعة، وهناك ضمن القاعة محراب مزخرف بمقرنصات تنتهي في الأعلى بصدفة، وتتألف واجهة المصلّى من باب مرتفع في الوسط، وعلى كل من جانبيه شباكان، وكلها تنتهي في أعلاها بقوس مدبب، وفوق كل شباك نافذة مستطيلة الشكل، وهناك في جهة الشرق من الصحن إيوان صغير مفتوح على دهليز الباب الرئيس للمدرسة[٣٩٠].

وتضم التربة قبر (الملك العادل)، وتعلوها قبة محمولة على عقود جدارية، في كل جدار (٣) عقود متراكبة تبرز بعضها عن بعض لتصغير قطر القبة، ويلي العقود رقبة القبة، وتتألف من شكل مثمن الأضلاع، وتحتل زوايا البناء مقرنصات، وتتناوب معها (٤) مجموعات من الشبابيك، في كل منها شباكان، ثم تأتي طاسة القبة، وهي ليست نصف كروية، وإنما متطاولة ذات مقطع مدبب، وللتربة شباكان

٣٨٩- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٢٦٢/.

390- Gonnella, Julia y Meinecke-Berg, Viktoria، Siria, Palestina y Egipto (ayubies, mamelucos y cruzados) en El islam Arte y Arquitectura Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona, /2001/, pp/175, 184/.

يُطلاّن على الشارع في الجدار الشرقي، وآخران في الجدار الجنوبي، بينهما محراب شبيه بمحراب قاعة الصلاة، والبناء خال من الزخرفة، تسيطر عليه البساطة[٣٩١]. الشكل(٩٩)

٢. مدرسة الصاحبة:

مدرسة صغيرة في الصالحية، شيّدتها أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي ربيعة خاتون الملقبة بـ(الصاحبة)، المتوفية سنة /٦٤٣هـ/١٢٤٥م/، وتضم المدرسة تُربتها.

تقع البوابة الرئيسة في الجهة الشمالية من المدرسة، مفتوحة ضمن إيوان قليل العمق، وغنية بمقرنصاتها الحجرية المتقنة النحت، وتنتهي في الأعلى بصدفة ذات ضلوع شعاعية، ومنها يتم الوصول إلى الصحن، وذلك بعد اجتياز الدهليز المسقوف بقبوة متقاطعة، ومنه إلى الإيوان الشمالي، ومن ثم إلى الصحن ذي الشكل المستطيل والمحاط بـ (٤) إيوانات موزعة حول الصحن على محاور متعامدة، واستُخدم الإيوان الجنوبي قاعة للصلاة؛ إذ هو مزود بمحراب في جداره الجنوبي، وعلى جانبي المحراب شباكان يُطلاّن على الخارج، ويُزوّدان القاعة بالنور، أما سائر الإيوانات فاستُخدمت لتدريس الطلاب في المدرسة، وفي الأركان قاعات مربعة الشكل موزعة على الشكل الآتي: اثنتان في الزاوية الجنوبية الغربية، ومثلهما في الزاوية الجنوبية الشرقية، وواحدة في الزاوية الشمالية الشرقية، ومثلها في الزاوية الشمالية الغربية، واستُخدمت هذه القاعات سكناً للطلاب، ما عدا القاعة في الزاوية الشمالية الغربية فهي تُربة لربيعة خاتون، والقاعات والإيوانات كلها مسقوفة بالقبوات المتقاطعة، ما عدا قاعة الصلاة، فهي مسقوفة بقبوتين نصفي أسطوانيتين، وهناك بوابة ثانوية للمدرسة في الجانب الشمالي من الجدار الشرقي، تؤدي إلى الإيوان الشمالي عبر ممرّ مستقيم، ومنه درجٌ يُؤدي إلى الطابق الثاني للمدرسة، وعلى جانبي دهليز البوابة الرئيسة قاعتان صغيرتان استُخدمتا خدماتٍ للطابق الأرضي، مسقوفتان بالقبوات المتقاطعة أيضاً[٣٩٢]. الشكل(١٠٠)

٣. المدرسة الركنية:

شيّدها الأمير (ركن الدين منكورس) عام/٦٢١هـ/١٢٢٤م/، وفيها تُربته التي تلفت الانتباه بقبتها التي تُعدّ أنموذجاً متقناً للقباب الأيوبية، فهي مزودة برقبة من الحجر ذات طبقتين، السفلية مثمنة الشكل فيها (٨) عقود، (٤) منها على قناطر مصمتة تتناوب مع(٤) فتحات في كل منها زوج من النوافذ،

٣٩١- العلبي، (أكرم حسن)، **خطط دمشق**، دراسة تاريخية شاملة، ط١، دمشق، /١٩٨٩/، ص/١٧١/.
الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/١٤٩، ١٥٤/.
حسن، (زكي محمد)، **فنون الإسلام**، القاهرة، /١٩٤٨/، ص/١٥٥/.

٣٩٢- البهنسي، **موسوعة التراث المعماري**، ج٢، ص/٣٢١/.
الريحاوي، **العمارة في الحضارة الإسلامية**، ص/٢٦٢/.
الريحاوي، **العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا**، ص/١٢٥، ١٢٦/.